وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

الطبعة الأولى
١٤٤٦ هـ/ ٢٠٢٤ م

اسم الكتاب: ولكل قومٍ هاد
المؤلف: شريف جابر حشاد
موضوع الكتاب: دراسات قرآنية
عدد الصفحات: ١٩٦ صفحة
عدد الملازم: ١٢.٢٥ ملزمة
مقاس الكتاب: ١٧ x ٢٤
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: ٣٢٩٤٦ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٣ - ٢٧ - ٨٧٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

ولكلٍّ قومٍ هادٍ

شريف جابر حشاد

دار البشير

إهداء

إلى كُلِّ ناصِحٍ أَمِينٍ يَهْدِي ذَوِيهِ إِلى صِراطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ.

المقدِّمة

بسم الله الذي اصطفَى بحكمتِه لكل قوم نبيًّا هاديًا بشيرًا ونذيرًا، يَدعوهم بأنسبِ طريقةٍ إلى مَعرفة الله وتَوحيده وعبادته، واتِّباع شريعته، والصلاةُ والسلام على المصطفَين الأخيار البرَرة الأطهار، جسورِ الهدى بين السماءِ والأرض.

هذا الكتابُ (ولكلِّ قومٍ هاد) هو امتدادٌ لكتابي الأول (أقبلْ ولا تَخَف) عن قصصِ الأنبياء مع أقومهم، وفيه نستعرضُ قصةَ قوم عاد مع نبيِّهم هود، وسَدوم مع لوط، ثمَّ داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى مع بني إسرائيل، على جميعِ رُسل الله السلام.

ومَنهجُنا هو التعمقُ في القصة لمعرفة شخصياتِها وسماتِ المجتمع، وصفاتِ النبي الذي أُرسِل إليهم، وإبراز التَّناسب بين مُقوِّمات الرسول واحتياجات قومِه، وكيفية مُلائمة أساليب الدعوة مع أحوالِ هذه الأقوام، ونُحلل أسبابَ إعراض هذه المجتمعات عن نداءاتِ الهداية، ونُسقط ذلك على واقعِنا الحاضر.

لقد قصَّ علينا ربُّنا قصصَ الأنبياء، وكرَّس لها ما يُقارب رُبع آياتِ القرآن الكريم؛ لنَستخلص منها الحكمةَ والموعظة الحسَنة، وهذا الكتابُ هو محاولةٌ للتَّفكر والتَّدبر في هذه القصصِ طاعةً لأمر الله في سورة الأعراف ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ (الأعراف: ١٧٦)، فإنَّ أنباءَ الرسل لم تُذكَر في أعظم كتب الله للتَّسلية، وإنما لطُمأنينة القلب

وتَرسيخ الإيمان وشَحذ الهِمم وزيادة اليقين : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (هود: ١٢٠)، فنَتيقَّن أنَّ جندَ الله هم الغالبون، وأنَّ الأرضَ لله يورثها مِن يشاء من عباده، وأن الله كتبَ لأغلبنَّ أنا ورسلي.

ونَرى في تلك القصص آفاتِ الأمم السابقة، فقومُ عاد أفسدَتهم حياةُ الترف التي أَلِفوها، فقدِ انهَمكوا في تَشييد القصور والحُصون، ولم يقدِّموا شيئًا لآخرتهم، وكأنهم سيُخلَّدون في الأرض ولن يَموتوا ويُحاسبوا، كما غرَّتهم قوتُهم فبَطشوا بجيرانهم وقالوا: مَن أشدُّ منّا قوة!، فأرسلَ الله إليهم هودًا عليه السلام بشخصيَّته الشجاعة، لم يهبْ قومَه الأقوياء الجبارين وتَحدّاهم بأن يتعرَّضوا له بسوء، تميزَ بذكاءٍ في التعامل معهم؛ فاستخدمَ النعمَ والملذّات التي يَعشقونها لتَحبيب الله لهم، فهو المُعطي ﷻ لهذه النِّعم فاعْبدوه يُديمها ويُكثرها لكم، وفي هذا رسالةٌ لنا أن نشكرَ الله على ما أفاءَ به علينا، وألا نَنغمسَ في المُباحات حتى لا تُنسينا ذكرَ الله وفرائضَه.

أما أهلُ سَدوم فقد تملَّكتهم الشهوةُ الجنسية الشاذَّة عن الفطرة، استشرتْ فيهم تلك الآفةُ فصاروا مُدمنين لها، ولا يَرون فيها عيبًا ولا مَذمَّة؛ لذلك أرسلَ الله إليهم (لوطاً) عليه السلام نبيًّا من غير جِلدتهم، لم يألفْ هذا الشذوذ ولم يتَعايش معه، فحاولَ لوط عليه السلام إثناءهم عن تلك الفاحشة، لكنَّهم لم يُناقشوه أو يُجادلوه، بل طالبوه بالعَذاب الماحق، وتَجرّؤا على ضيوفِه وأرادوا بهم السّوء، حتى أتاهم عذابُ الله وهلاكُه، ولعلَّ هذا أبلغُ عِظة لمواجهةِ حَملات الترويج الشرسَة للمِثْلية، فإنَّ الله لا يُخلف الميعاد.

وتروي قصةُ داود ﷺ الرحلةَ من الهزيمة إلى النصر، كيف تحوَّل مجتمعٌ مُنهزم مُتخاذل إلى أمَّة شامخة مُنتصرة تملك أرضَها وقرارَها. كانت روحُ الخضوع والذُّل والضعف والاستسلام هي السببَ الرئيس في هَوان بني إسرائيل وغَلبة عدوِّهم عليهم، فلمّا عزموا على القتال وتوحَّدوا حول القائد القوي الحكيم (طالوت)، أخرج الفئةَ المتَذَبذبَة ضعيفةَ الإيمان من الجيش؛ انتَصروا بإذنِ الله على عدوِّهم، ثمَّ قادَ دولتَهم داود ﷺ ومِن بَعده سليمان ﷺ، ليُسيطر على الأرض ويبلغ مُلكُه مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بَعده، ونرى في سليمان ﷺ كلَّ صفاتِ الملك الحكيم الشجاع، وهو ما تَحتاجه هذه المملكة الضَّخمة، ونتعرَّض لمملكة سبأ وملكتها بلقيس التي تميَّزت بالدبلوماسية واستخدامِ الوسائل السياسية في إدارةِ النزاع مع مملكةِ سليمان، حتى شرح الله صدرها وأسلمَت لله مع سليمان.

وأخيرًا نتعرَّض لآل عمران، فنرى قلوبَ قومهم أقسَى من الصخر، يحملون التوراةَ في الصحف ولا محلَّ لها في الصدور، فيرسلُ اللهُ لهم أنبياء تميَّزوا بالمحبة والرحمة والتَّواضع: زكريا ويحيى وعيسى ﷺ، ولعلَّ من حكمةِ الله في أن يكون عيسى ﷺ بلا أبٍ حتى يتربَّى في حضن أمه ويتشرَّب ذلك الحنان الذي يحتاجه قومه، فيردّهم إلى الإنسانيةِ والروحانية، ويَدعوهم إلى تقوى الله في السِّر قبل العَلن، وإلى التراحم والتَّواضع. بالإضافةِ إلى أنَّ القوم كانوا ماديّين ونابغين في العلوم والطب، فتحدّاهم بمعجزاتِ خَلق الطير وإبراء الأعمى والأبرَص؛ ليتأكَّدوا أنَّ قانونَ السببية ما هو إلا أداةٌ في يد الله يُفعِّلها ويُعطِّلها كيفما شاء، لكنهم ضاقوا صدرًا بأنْبيائهم، فقَتلوا يحيى وحاولوا صلبَ المسيح وقتلَه، فيأبى اللهُ إلا أن ينصرَ رسولَه عيسى وينشر دعوتَه.

وقـدِ احـترتُ في تسـمية هـذا الكتـاب، فعزمـتُ أن أسـمّيه (أقبـلْ ولا تَخَـف- الجـزء الثـاني) وذلـك لأنَّ أنبيـاءَ الله قـد أقبَلـوا عـلى الله وَدَعـوا قومَهـم بشـجاعة وإخـلاص فآمنهـم اللهُ ونَصَرهـم، ثـمَّ قلـتُ أطلـقُ عليـه (أنّي مَغلـوب فانتـصر) وذلـك لأنَّ كلَّ مَـن أرسـل اللهُ كان في لحظـةِ ضعـفٍ شـديد، وكاد قومُـه أن يَفتكـوا بـه إلى أن دعـا الله فجـاء النـصرُ المبـين بحَـول الله وقوَّتـه، وفيـه رسـالةٌ لـكلِّ مؤمـن بأننـا وإنْ كنّـا مَغلوبـين الآن فسـوف يأتينـا النـصرُ مـن عنـده، ولكـن علينـا أن نَسـتدعيه بالتمسُّـك بـصراط الله المسـتقيم، وبالدعـاء. ثـمَّ فكَّـرتُ في (بـشرًا رسـولًا أو رجـالًا نوحـي إليهـم) وذلـك لأنَّنـا نسـلط الضـوءَ عـلى الصفـات البشريـة لـكل نبـيٍّ إلى جانـب مقوِّمـات الدعـوة، ثـمَّ انتقلـت إلى (بشـيرًا ونذيـرًا) فـكلُّ رسـول بُعـثَ ليُبـشِّر المتقـين برضـوانِ الله وجنّاتـه، ويُنـذر الكافريـن المعانديـن مُرتكبـي المعـاصي والفَواحـش مـن عذاب الله ونِقمتِـه ونـاره، ثـمَّ فكـرتُ في (أنبـاء الرسـل أو أنبـاء المرسـلين) فهـي أخبارُ وأنبـاء وأحـداثُ رُسُـل الله وأنبيائـه مـع أقوامهـم، وأعجَبَنـي أيضًـا (المصْطَفـين الأخيـار) فهـؤلاء الرسـلُ اختارهـم واصطَفاهـم اللهُ وصَنَعهـم عـلى عينِـه وهيَّـأ لهـم الأسـبابَ والمقومـات ليكونـوا رسـلَه إلى النـاس، وهمَمـتُ بتَسـميته (أمـمٌ أمثالكـم) فقصـصُ الأقـوام السـابقة تُشـبه أحداثَنـا التـي نعيشـها، وآمالهـم وآلامُهـم وشـخصياتهم تُماثـل آمالَنـا وآلامَنـا وشـخصياتنا، وفي النهايـة اسـتقرّيت عـلى (ولـكلِّ قـومٍ هـاد) لأنَّـه يـدلُّ عـلى أنَّ الله اختـار لـكلِّ قـومٍ مـا يُناسـبهم مـن رسـول، وأيَّـدَ كلَّ رسـول بالمعجـزات التـي تَتَناسـب مـع قومـه، وهـو مـا وضَّحْنـا هنـا، فألقَينـا الضـوءَ عـلى أحـوالِ وظـروف وصفـاتِ كلِّ قـوم، وملائمـة صفـاتِ وأقـوال ودعـوةِ كلِّ نبـيٍّ لحالـة قومـه.

في نهايةِ هذه المقدمة أعتذرُ عن كلِّ خطأ وأبرأ من كلِّ أمرٍ وردَ فيه يُخالف الحق، وأتقرَّب إلى الله بكلِّ حرفٍ كتبتُه، كان هذا اجتهادي، فما كان من صوابٍ فيه فبِفَضل الله وتوفيقِه، أحمدُه عليه؛ وما كان غير ذلك فمنّي، وما أبرِّئ نَفسي، فأستغفرُه وأتوبُ إليه.

شريف جابر حشاد

* * *

تعبثون

الحفيد: جدّي العزيز، هل يمكن أن تتوسَّط لي عند أبي، أريد الذهابَ للاستاد لتَشجيع فريقي غدًا، إنَّها مباراة مهمَّة جدًّا، وسوف يذهب كلُّ أصدقائي.

الجدُّ مُتعجِّبًا: هل يلعبون كرةَ القدم أثناء الصيام؟

الحفيد: لا يا جدّي، ستكون المباراةُ في تمام العاشرة مساءً، ولكن علينا التحركُ مُبكرًا، من الخامسة مساءً.

الجدّ: ومتي ستَعود يا بني؟

الحفيد: ستَنتهي المباراة في الثانية عشرة، وسوف أذهبُ بعدَها مع أصدقائي للسّحور في أحدِ المطاعم الشهيرة التي تقدِّم مأكولاتٍ لذيذة، ثمَّ نَختم بجلسةِ سمرٍ في مقهى جميل بمِنطقة الحسين.

الجدّ: هل تُدرك يا حفيدي أنَّ ليلةَ غدٍ هي ليلةُ السابع والعشرين، ولعلَّها تكون ليلةَ القدر، هل تضيِّعها وهي ليلةٌ خيرٌ من ألف شهرٍ من أجل عبثٍ بلا هدفٍ أو غاية؟! وحتى وإن لم تكنْ ليلة القدْر فهل نضيِّع ليالي وأيامَ عمرنا فيما لا خيرَ منه، هل خُلقنا للَّهو والمرح؟

الحفيدُ بصوتٍ مُنخفض: وهل هناك ضَررٌ من اللَّهو والمرح غير المحَرَّم يا جدّي؟

الجدّ: عندما يَستغرقُ الإنسانُ في اللهثِ وراء الملذّات ويَنسى تزكيةَ نفسِه بالعبادات، يُظلم قلبُ المرء ويضعفُ إيمانه، وربَّما يكفرُ بالله وأنْعُمه، ولقد انتشرَ في عصركم هذا الإلحادُ وكثرتِ المعاصي على كثرة النِّعم التي وهبَنا الله، وهو ما يُذكِّرني بقصة هود عليه السلام مع قوم عاد.

الحفيد: هل كَفروا بالله بسببِ الانشغال بالملذّات واللهو؟

الجدّ: سأحكي لك القصة...

مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً!

تذهبُ بنا هذه القصة إلى هناك؛ إلى قمَّة التَّمدن والحضارة والرُّقي والرفاهية، إلى قوةِ العدَّة والعتاد، إلى منطقةِ الأحقاف[1] جنوبَ الجزيرة العربية؛ حيث يسكن قومُ عادٍ العرب، الذين أعقبوا قومَ نوح عليه السلام.

كانت "عاد" دولةً متقدِّمة بالمقاييس المعاصرة، بل كانتِ الدولةَ العظمى في ذلك العصر؛ آيةً في الرقي العمراني، أصحاب قصور فَخمة بَنَوها على رؤوس الجبال ذاتِ أعمدةٍ شامخة، لم يرَ العالمُ لها مثيلًا ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ (الفجر: ٦-٨).

كما اعتَنوا بالحفاظ على مواردِهم ومُمتلكاتهم الثَّمينة فشيَّدوا الحصونَ لتَحميهم من أعدائهم، وأقاموا الخزاناتِ لحفظِ الماء وتَخزينها، ومن ثمَّ استخدامها عند نُدرة الأمطار، لقد خطَّطوا لحياتهم الرَّغْدة وكأنهم سيَخلدون في الأرض.. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾(الشعراء: ١٢٩).

أمدَّهم اللهُ بطبيعة سخيَّة، كثرت فيها البساتينُ والأنهار والعيون، وامتلأتْ بلدُهم بالفواكه والخضروات والحبوب، وازدحمتْ حظائرُهم بالأبل والبَقر والأغنام، كما كانوا كثيري النَّسل؛ ففاضَت دورهم بالبنين الأصحّاء، لم تكن عادٌ في حالِ اكتفاء فقط، بل كانوا مُترَفين من غَزارَة النِّعم وتنوُّعها ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾ (الشعراء: ١٣٣-١٣٤).

(١) الأحقاف: منطقة بين عُمَان وحضرموت.

وفوقَ كلِّ ذلك منحَهم اللهُ الصحةَ والعافية فتميَّزوا بقوة البِنية وضَخامة أجسامهم، فاجتمعتْ لهم كلُّ سُبل السعادة التي يتمنّاها أيُّ مجتمع؛ الصحة والقوة والرخاء. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ﴾ (الأعراف: ٦٩).

وصلتْ عادٌ إلى ذروةِ الازدهار والتقدم والمَنَعَة، وصلتْ لما لم يسطعْ أيُّ بلد أن يصلَ إليه. كانت في المركز الأول الذي يتمنّاه الجميع، حتى إنَّ الله وصفَها بأنها لم يُخلَق مثلُها في البلاد لتفرُّدهم وقوتِهم، بالإضافة إلى أنَّهم كانوا أهلَ عَقل وتَدبير، حتى إنَّ العرب كانوا يضربون المثلَ بعقول عاد[1] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ (الفجر: ٦-٨).

يَختبر اللهُ عبادَه بالخيرات والنِّعم كما يختبرُهم بالمكارهِ والمحَن، فمَن شكرَ في الأولى وصبر في الثانية؛ فقد فاز، ولا نَدري أيّ الاختبارين أصعَب. يسَّر اللهُ ﷻ لقوم عادٍ ما لم يتيسَّر لغَيرهم، كانوا الأكثرَ قوة ورفاهية على وجه الأرض، كان هذا هو اختبارَهم، امتحنَهم اللهُ بالكثرة، فهل شَكروا الواهبَ على ذلك؟ كلّا، لقد اغترّوا وتكبَّروا بما خوَّلهم ربُّهم من نِعَم، وجَعلوا له شركاء؛ عَبَدوا الأوثان، صنَعوها بأيديهم، ثمَّ شَكروها على النعم التي أفاءَ اللهُ بها عليهم. أيُعطي اللهُ ويُشكَر غيرُه؟ أيَخلقنا ونَعبدُ سواه!

ثمَّ يأتي الجانبُ التَّطبيقي لشُكر النعمة، فهل استخدمَ القومُ هذا الخيرَ الوفير في مساعدة جيرانهم من الأمم؟ كلّا، لقد بَطشوا وظلَموا مَن حولهم واستخدَموا قوتَهم الغاشمة في إرهابِهم، والاستيلاءِ على خَيراتهم.. ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ (فصلت: ١٥).

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عشور، بتصرف.

أرسلَ الله ﷻ إليهم "هودًا" عليه السلام رسولًا منهم يعرفون نسبَه؛ ليَدعوهم إلى التَّوحيد والإيمان. كان أخًا لهم، يريدُ بهم الخير، فنَصحهم بتوحيدِ الله وعبادته، فهو الإلهُ الأحد الفردُ الصمد الحقّ، المستحقُّ للعبادة، ليس لهم غيرُه، فكلُّ ما يَعبدونه بخلاف الله باطل، فأمَرَهم بتَرك الشِّركِ حتى لا يُصيبهم العذابُ كما أصابَ قومَ نوح عليه السلام من قبلهم.. ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٥).

بالرَّغم من شركِ قومِ عادٍ إلا إنَّ الله وصفَ رسولَه "هودًا" بأنه "أخوهم"، أخٌ لهؤلاء الجاحدين الكافرين، ليس الداعيةُ ببعيدٍ عن الناس، هو ليس في ذلك البرج العاجي يُناديهم من بعيد؛ بل هو قريبٌ يتحبَّب ويتقرَّب إليهم، يُخالطهم ويَدعوهم بالحسنى رأفةً بهم وخوفًا عليهم، فالدعوةُ إلى الدين أبعدُ ما تكون عن التَّكبر والعُجْب بالنفس، فلا تترفَّع بنفسِك عن إخوانك الذين تظنُّ أنهم أقلُّ منك عبادة وتديُّنًا، فمَن يدري مَن تُكتب له حسنُ الخاتمة، وحاولْ أن تدلَّهم على الصراط المستقيم وأنت بينَهم تجالسهم وتَتَباسط وتتودَّد إليهم، فذلك أدعى لأن يألفوكَ ومِن ثمَّ يحبّوك ويقلّدوك.

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾: اللهُ هو الركنُ الشديد الذي يجب أن نتوكَّلَ عليه، فلا الحصونُ ستَحمي، ولا العيون والزّروع ستُغني، ولا الجنود ستَنصُر؛ إنْ أرادَ بكم سوءًا. لا تركنْ إلى غيره في صغيرةٍ أو كبيرة، فهوَ الحيُّ القيوم الذي يدبِّر الأمرَ، يرفَع ويُخفض ويعزُّ ويذلُّ ويعطي ويَمنع.

شرحَ هود عليه السلام لقومِه أنه رسولٌ أمين، يبلغُهم رسالةَ ربهم، والرسولُ أمينٌ على محتوى الرسالة لا يزيدُ فيها أو يُنقص أو يبدِّل، وهو لا يبغي

أجرًا منهم على ذلك، فأجرُه على الله الذي بعثَه إليهم، كان ذلك التوكيدُ ضَروريًّا لعلمِه أنَّ قومه حريصون أشدَّ الحرص على أموالهم ومُمتلكاتهم؛ همُّهم الدنيا وزينتُها، فهو لا يريد بدعوتِه نَصيبًا من حدائقهم أو قُصورهم، إنما يَدعوهم إلى الانشغالِ بالرزاق ﷻ عنِ الرزق، وبالآخرة عنِ الدنيا، يتمنى لهم الإيمانَ والتقوى بدلًا من اللَّهو والعبث، فتَقوى الله خيرٌ لهم من الدنيا وما فيها، فهي سبيلُ مَرضاة الله وجنَّته ونعيمِه الأبدي ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ (الشعراء: ١٢٤- ١٢٧).

عاتبَ هود عليه السلام قومَه على انغماسهم في حبِّ الدنيا ومَلذّاتها، فهُم مُنهمكون في تَشييد القصور والحصون، ولم يقدِّموا شيئًا لآخرتِهم، وكأنَّ الموت لن يزورَهم، وكأنهم سيَخلدون في الأرض ولن يُحشروا إلى ربهم، كما عاتَبهم على بَطشهم الشديد بغَيرهم، فليسَ من المروءة أن يَستكبروا ويتجبَّروا على الأقوام الأضعفِ منهم، فمَن يؤمن بالله واليوم الآخر يَعمل لذلك اليوم بالإحسانِ لغيره والصلاة والدعاءِ والصَّدقة وغيرِها من أعمال البر، ولا يَجعل كلَّ همِّه اللذة الزائلة واللَّهو الفارغ والتَّرفيه بلا هدف، هذا الاستغراقُ في المادية أظلمَ قلوبَهم، وشغلَ عقولَهم، وأعمى أعينَهم عن الحق، فجدّوا في طريق الشِّرك ونَسوا ذكرَ الله وشكرَه وعبادته ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ (الشعراء: ١٢٨- ١٣١).

الإنسانُ مُكلَّف بعِمارة الأرض وإصلاحِها، وذلك بإقامةِ السدود وحَفر الآبار، وتَمهيد الطرق، كما حثَّنا الشرعُ على غَرس فَسائل الأشجار والنخيل والاهتمام بالزرع، كلُّ هذا يؤجَر عليه المسلمُ إن صَلحَت نيتُه.

أما الغرقُ في حياة البَذخ ومطاردةُ الشهوات ليلَ نهار؛ فهو أمرٌ منكَر، قد تَستمتع به حواسُّنا، لكنه لن يوصلَنا إلى إشباعِ حاجاتنا الروحية، فأرواحُنا لن تهدأ وتَستريح إلا بالرجوع إلى خالقِها، بالتلذُّذ بعبادته وذكره والسجودِ له.

للأسفِ فإنَّ المادية غلبَت في عصرنا، نَجتهد ونعمل بكدٍّ لفتراتٍ طويلة لنزيدَ من دَخلنا، لكي نَستطيع شراءَ البيوت والشقق والفِلل الفاخرة في الأماكن الراقية، والترتيب للرحلات الترفيهية، وكثرة ارتياد الشواطئ والمنتَجَعات، وإدمان زيارةِ مراكز التسوُّق والمقاهي، وكثرة الفُسح والملاهي، حتى إنَّ خمسينَ ألف شابٍّ مُسلم قَضوا ليلةَ السابع والعشرين من رمضان- الليلةَ الأرجى لتكون ليلةَ القدر- في أحدِ الملاعب ليُشاهدوا مباراةَ كرة قدم!

أمرَ هود عليه السلام قومَه بتقوى الله، وأكَّد عليها بتَكرارها، فالقومُ لا يهابون ولا يَخافون أحدًا، غرَّتهم مَنَعتهم وقوتُهم وتَفوُّقهم على مَن حولهم، حتى تَساءلوا عمَّن أكثرُ قوةً منهم، مُستنكرين أن يكونَ على هذه الأرض مَن يَغلبهم أو يُماثلهم في الصَّلابة والبأس والشدَّة؛ لذلك يأمرُهم نبيُّ الله عليه السلام بأن يَخافوا الله ويتَّقوه، فهو المُعطي لذلك الرَّغَد الذي ينعمونَ به، هو مَن رزقهم إياه، عدَّدَ لهم تلك النعم؛ هذه الأنعام التي تتلذَّذون بأكلِها والاستمتاع بصوفها، وتَحملكم أنتُم ومتاعَكم، وتلك الذريةُ التي وهبَكم إياها، البنون الذين يَحملون أسماءكم وهُم لكم أنسٌ في صِغرهم، وغدًا يكونون عونًا وعزَّة، وتلك الجنانُ والحدائق المكتظَّة بكلِّ ما تَشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، فيها الفاكهةُ والزروع والظلال، وفوقَ ذلك قوةُ الجسم ورجْحانُ العقل والتدبير، كلُّ تلك المنَح من ربِّكم فاتَّقوه، هذا

النعيمُ الذي تَعشقونه، كان يجب أن يُقابَل بالشُّكر للوهاب، وإلا سيَنقلب حالُكم إلى عذابٍ عظيم إن كَفَرتم به، وهو ما أخافُ حدوثَه لكم، لا أتمنَّى لكم هذا المصيرَ البائس، أخافُ عليكم من زَوال النعمة وفُجاءة نِقمةِ الله ﷻ وسَخَطه وعذابه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ (الشعراء: ١٣١- ١٣٥).

للأسفِ لم تلقَ دعوةُ هود عليه السلام آذانًا مُصْغية ولا قلوبًا متفتِّحة، تولّوا عنِ الوعظ والنَّصيحة، وبعزيمةٍ قويَّة قرَّروا عدمَ الانصياع إلى تلك الدعوةِ الكريمة، فرَدّوا على رسولِهم بأنَّ تخويفَه لهم بالعذاب وعدمِه سواء، هذه الكلماتُ لن تُحرك فينا ساكنًا، ولن تمسّ قلوبَنا؛ فحياتُنا مثل أسلافنا، سنَعيش ثمَّ نموت ونَبلَى ولن يكونَ لنا ذكرٌ، ولن يكون هناك حسابٌ أو عذاب عظيم مما تخوِّفنا به.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ (الشعراء: ١٣٦-١٣٨).

امتلكَ الشغفُ بملذّات الحياة قلوبَ عادٍ فأظلمَت واسودَّت، لم يعدْ في صُدورهم موضعٌ لحبِّ الله، عِشْق المادية أعْماهم عنِ البَعث والحساب؛ إنما هي حياتُنا المحدودة نَعيشها لكي نحصلَ على أقصى متعةٍ مُمكنة في كلِّ لحظة قبلَ أن نموت، هذا هو حالُ المُلحد الذي ينكر وجودَ الله في كلِّ عصر، يعيش كالبَهائم أو أضلّ سَبيلًا، يَنهَم من كلِّ الشهوات ولا يأبَه لحلالٍ أو حرام. إنَّ التدين سوف يحدُّه من الركض خلفَ شهواته، سيأمرُه

بالاعتدال في الملبَس والمأكل وجَميع ملذّاته، لكنه يريد الشططَ والغلوَّ ولا يكتفي بالتوسط، يريد حياة عَبَثية بلا قيودٍ ولا فرائض وواجبات؛ لذلك يُنكرون الخالقَ ويرفضون الإيمان.. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (المؤمنون: ٣٧).

* * *

الحفيـدُ: كنـتُ أحسـبَ يـا جـدّي أنَّ الابتـلاء يكـون بالمصائـب فقـط كالمـرض والمـوتِ والفقـر، ولكـنْ عـادٌ ابتلاهـم اللهُ بالخـيرات!

الجـدُّ مُتعجِّبًـا: صحيـحٌ يـا بنـي، كانـت اختبـارًا لهـم، لكنهـم فَشـلوا في اجتيـازه.

الحفيـدُ: اعتقـدتُّ أنـه مـن السَّـهل أن نشـكرَ الله عـلى نعمِـه مقارنـةً بالصـبر عـلى النَّوائـب.

الجـدّ: إلـفُ النِّعـم وتجدُّدُهـا يَجعـل بعـضَ النـاس ينسـى وجودَهـا، ومـن ثـمَّ لا يـؤدّي شـكرَها.

الحفيدُ: كيف هذا؟

الجـدّ: عندمـا تجـدُ المـاءَ كلَّ وقـتٍ بـاردٍ وحـار؛ فإنـك لا تـدرك قيمـةَ هـذه النعمـة، ولكـنَّ أهـل البلـدان الفقـيرة التـي تتـضرَّع إلى الله لسـقوطِ الأمطـار تَشـعر بقيمـةِ نعمـة المـاء، وهكـذا نعمـةُ البـصر فأنـتَ لا تحـسُّ بهـا لكـنَّ الأعمـى يَعلمهـا جيـدًا.

الحفيـدُ: آه، الآن أدركـتُ أنَّ لـديَّ الكثـير مـن النعـم، ولكـن كيـف أتذكـرُ هـذه النعـمَ دائـمًا حتـى أحمـدَ الله عليهـا؟

الجـدّ: بالتَّفكـر وتحصيـلِ العلـم النافـع، أمـا حيـاةُ اللهـو فتَجعـل الفـردَ في حـال انشـغالٍ زائـف، فاجعـلْ لنفسـك خلـوةً يوميـة، ابتعـدْ عـن الموبايـل والأصدقـاء، تدبَّـرِ القـرآن واذكـرِ الله: بحَمـده عـلى نعمِـه واسْـتَغفره لمـا أصبتَ مـن ذنـوبٍ وسـبِّحْه عـن كلِّ نقـص.

الحفيدُ: سأفعلُ بإذن الله.

وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ

تصدَّى الملأ لهود عليه السلام، والملأ هُم صفوةُ المجتمع ووجَهاؤه وأصحابُ الرأي وأهلُ الحلّ والعقد، الذين يَقودون مسيرةَ المجتمع، ويُشكِّلون وعيَه وقيَمَه والرأيَ العام، يَقتدي بهم العامة، وقد كانوا مُناوئين لدعوةِ نبيهم فأورَدوا قومَهم العذابَ الأليم، لقد حاربوا رسولَهم بإطلاق الشائعات فرَموا هودًا عليه السلام بالسَّفاهة والحُمق والجهل والكذب، "وأيُّ سفهٍ أعظمُ ممَّن قابل الحقَّ بالرَّد والإنكار، وتكبرَ عنِ الانقياد للمُرشدين والنُّصحاء، وانقادَ قلبُه وقالبُه لكلِّ شيطانٍ مَريد، ووضعَ العبادةَ في غير مَوضعها، فعبدَ مَن لا يغني عنه شيئًا من الأشجار والأحجار؟" وأيُّ كذبٍ أبلغُ مِن كذب مَن نَسبَ هذه الأمور إلى اللهّ تعالى؟"[1].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٦).

فهل ردَّ هود عليه السلام على إساءتِهم بمِثلها؟ بل أجابَهم أنه ليس به سفهٌ أو حُمق، إنَّه رسولُ ربِّ العالمين؛ لا ينطقُ عنِ الهوى، وظيفتُه أن يبلغَ رسالاتِ ربه، وهي الدعوةُ للإيمان بالله الواحد الصَّمد، وبِرُسله، ومن ثَمَّ عبادته بما فرضَه عليهم من طاعاتٍ واجتنابِ نَواهيه، وبيَّن هود عليه السلام أنه ناصحٌ لهم وليس بطامعٍ في أجرٍ أو سمعة أو وجاهَة أو رئاسة، إنما يفعلُ ذلك بإخلاصٍ لله.. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٨).

(١) تفسير السعدي، بتصرف.

أكملَ هود عليه السلام موعظتَه: أتَعجبونَ أنَّ الله أرسلَ إليكم رسولًا منكم ليُنذركم بالوحي- يقصد نفسَه-، رجلًا من بينِكم تَعرفونه وتعرفون نسبَه وخُلقه، هذه سنةُ الله في عباده؛ أن يَصطفي مَن يشاء مِن عباده ليدعو قومَه ويُعلمهم الكتابَ والحكمة، رسولًا يأكل الطعامَ ويَمشي في الأسواقِ ليكون لهم قدوة، وكأنَّ القوم استخفّوا بهود، وشَعروا بأنه ليس بأفضلَ منهم ليتَّبعوه، أرادوا رسولًا بصفاتٍ خارقة، وهي إحدى حجج المعانِدين مع كلِّ الأنبياء، ولو أنَّهم دقَّقوا لعَلموا أنَّ هودًا عليه السلام أنقاهم قلبًا، وأصدقُهم حديثًا، وأحسنهم خلقًا.

كما ذَكَّرهم بنعمةِ الله عليهم إذْ أصبحوا أصحابَ السيادة والحَضارة في الأرض بعد هلاكِ قوم نوح بالطوفان، فقد زادَ في أطوالكم وعافيتكم، فتفكَّروا وتأمَّلوا في فَضل الله عليكم واشْكروه ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾(الأعراف: ٦٩).

إنَّ تَذكرَ وتَعداد نعمِ الله علينا يَستدعي شكرَه؛ لذلك ذكَّر هودٌ قومَه بنعمةِ خلافةِ قوم نوح، وبنعمةِ بَسْطة الجسم، فاللهُ أنشأهم على هذه الهيئة، لم يَخلقوا أنفسَهم طوالَ القامة وأقوياءَ البِنية، ألا تَشكروا الخالقَ على تلك الهبَة؟ علينا دائمًا أن نذكِّر أنفسَنا بما وهَبَنا الله، وهذه النعمُ تَختلف من شخصٍ لآخر، فأحْصِ منَحَه التي خصَّك بها، واشكرْه على كلِّ نِعمة أدركتها أو لم تُدركها، احمَدْه سرًّا وجهرًا، وأمّا بنعمة ربِّك فحدِّث، حدِّثْ أقاربك وأصدقاءك وأبناءك، قلْ لهم لقد كنتُ فقيرًا فأغناني، وكنتُ تائهًا فهَداني. حدِّثهم عن كرمِه لك، وعن سترِه عليك، وعن جَبره لخاطِرك، فإنَّ ذلك من شُكر النعمة، فَضلًا على أنه يحثُّ

الآخرين على إدراكِ فَضله عليهم، مما يرقِّق قلوبَهم ويُشعرهم بالامتنان لمولاهم، ومِن ثَمَّ شكره وعبادته.

لم يُعجَب الملأ بكلامِ نبيِّهم، استَنكروا عليه أن يَدعوهم لدينٍ يَختلف عن دينِ آبائهم، فكيف يَعبدون إلهًا واحدًا، ويتركون الأصنامَ التي وجدوا أسلافَهم عليها عاكفين، لم يُناقشوا مُحتوى رسالته ولم يُمرّروها على عقولهم أو قلوبهم، مادامَت تدعو لخلافِ ما ورثناه من عقيدة، فإنا رافضون، ولن نَنْصاع ولن نَلين، لم يُطالبوه بالدليل، ولكن تَحدّوه وطالبوه بالعذاب الذي يُخوِّفهم به، إن كان صادقًا.. ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ (الأعراف: ٧٠).

ليسَ كلُّ ما نرثُه من أجدادنا صحيح، علينا أن ندقِّق في مَوروثاتنا، فإنْ كانت متوافقةً مع الشَّرع فنِعْم بها، وإن كانت مخالفةً لصَحيح الدين تَركناها وبدَّلناها واستَغفرنا لآبائنا، نحن نَتطوَّر في كلِّ نواحي حياتنا، فنركب سيارات، ونستخدمُ معدات وأجهزة لم يَستعملها مَن قبلَنا، فلمَ نُلزم أنفسَنا بمعتقداتِ السابقين؟ هناك الكثيرُ من العادات الخاطئة مثلَ الأخذ بالثأر وظُلم البنات في الميراث؛ مازال عليها الكثيرُ من الناس، وحجَّتهم الوحيدة هي التَّقاليد، فأيُّ الأحقُّ بالاتِّباع: التقاليد والعادات أم شرع الله؟!

كان عليهم أن يسألوا رسولَهم البرهان على صدقِ دَعوته وبطلان ما هُم عليه، لكنَّهم تَحدّوه أن يعذبهم، لقد ظنَّ القومُ بأنهم أكبرُ من أن يعذِّبَهم أحد، لقد بلغَ الاستكبار مبلغَه، فمَن أشدُّ منهم قوة، ويستطيع

أن يُنكلَ بهم، إنَّهم بأجسامهم القوية وحُصونهم المنيعَة قادرون على البَطش بأقوى الجيوش، ولكن أيَقدرونَ على مواجهةِ الله، أليس اللهُ بأقوى منهم!؟ أليس هو مَن أمدَّهم بسُبلِ القوة التي يَتباهون بها؟ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (فصلت:١٥).

مِن الغريب أن يُعطيك اللهُ ﷻ من فَضله فلا تَشكره، والأغربُ أن تعْصيه بهذه النِّعم! فهذا هو عينُ الجُحود، لقد أغدقَ ﷻ على عادٍ بكَرمه فآتاهم القوَّة، فإذا بها وسيلتُهم ليَتكبَّروا في الأرض بغير حق، ويَعتدوا على غيرهم. على العبد أن يسجدَ لله شكرًا عندما يَهبُه من جودِه، يحني رأسَه تواضعًا وامتنانًا للوهّاب، ويدرك أن هذه النعمةَ ما كانت لتصلَ إليه لولا مَشيئتُه، هذا هو حقُّ النعمة، ثمَّ يوظف المنحةَ فيما أمرَه، فإن كان قويًّا فليَحمِ الضَّعيف، وإن كان غنيًّا يساعد الفقير.

تَتوالى السنون وهودٌ عليه السلام لا يزال يديرُ سجالاتِ الحوار لإقناع قومِه بالرجوع إلى الفِطرة السليمة وعبادة الله وتَرك الأصنام. لم تكنْ هذه الأصنام سوى افتراءاتٍ ليس لها أصل، هي أسماء أطلقوها وآباؤهم، هُم يعرفون هذه الحقيقة، فكيف تَعبدون إفكًا أنتم صَنَعتموه، حتى أسماء الأصنام أنتم مَن سمَّيتموها، أيُعقل أن تكون آلهةً تَنفع وتَضر!

لا تزال قضيةُ الكفر حتى عَصرنا تقوم على أدلةٍ واهية ومنطقٍ فاسد وأوهامٍ زائفة، فالنقاشُ حول التَّشكيك في وجود الله يكاد يكون سَفسطةً وجدلًا عقيمًا، ولكنه قائمٌ ومُستمر حتى الساعة. الهداية لا تَحتاج إلا لفطرة نقيَّة وقلبٍ سليم وعقلٍ محايد، أما المكابرُ الجاحد ذو القلب السَّقيم

فسيَتولى ولو رُفعت عنه الحجب، ورأى الجنةَ والنار بعَينيه؛ سيَجد حجَّة للكفر، سيقول ربما كان أحلامًا، أو ربما هلوسَة بَصرية وسمعية، سيجد ذَريعة. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ (الأعراف:٧١).

أمسكتِ السماءُ عن المطر لعددٍ من السنوات، هكذا اختلفَ حالُ قوم هودٍ لما كفروا وعانَدوا رسولَهم، ولكنهم لم يُراجعوا أنفسَهم، لم يتفكَّروا ما سببُ ذلك؛ لماذا توقفَ الغيث؟! كانوا في مَعزل عن التفكُّر، لا بدَّ أنَّ ماديتهم جعلتهم يعتقدون أنها أسبابٌ مادية بَحتة، ربما عَزَوها إلى التغيُّر في المناخ أو لغَضب الآلهة، لكنهم لم يَعتقدوا أنها بسبب كُفرهم. ويُعاود هودٌ دعوتَهم إلى التوحيد، مُبينًا أنه لا يريد منهم أجرًا، وأنَّ هدفَه الوحيد أن يؤدّي رسالةَ الله التي كلفَه بها، وأنه يرجو الأجرَ والثواب من الله، هو عبدٌ لله يأمل أن يَرضى عنه، وهكذا يجب أن يكونَ حالُكم، تمنَّى عليهم أن يَعقلوا كلامَه، فكّروا فيه ستَجدون أن دعوتي تَتماشَى مع العقل والمنطق، لا تَركنوا إلى الموروثاتِ البالية.. ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾ (هود:٥١).

فإن تبتُم عن كُفركم ورَجَعتم إلى ربكم مُنيبين إليه، فستَعود الحياة إلى سابقِ عهدِها المزدَهر، ستعاود السماءُ إمطارَها بسَخاء، ستصبحون أقوى مما أنتُم عليه، هُم مَهوسون بالقوة وبالرَّفاهية، وهذه النعمُ بيدِ الله، أمسكَها عنكم عدَّة سنوات لتعودوا إليه، فاستَغفروا ربكم وتوبوا إليه يأتيكم ما تحبّون.. ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ (هود: ٥٢).

بعضُ الناس يعتقدون أنَّ أسبابَ الرزق دنْيوية بَحتة؛ يحاول زيادة مَبيعاته بما لا يُرضي الله، فتَراه يكذبُ ليزيِّن بضاعتَه، وآخر يَجذب العملاءَ بموسيقى صاخبة، وثالث يَستخدم فتياتٍ ليَستميل المُشترين،... نَسوا أنَّ الله هو الرزّاق ذو القوة المَتِين، ولَوا أنهم استَقاموا على أمرِه لجاءهم رزقُهم وفوقَه بركةُ الله ورضوانه، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الأعراف: ٩٦).

عرضَ عليهم هودٌ صفقةً رابحة، سيَربحون الدنيا والآخرةَ معًا إنْ قالوا كلمة الإيمان وعَملوا بمُقتضاها، الإيمانُ في مقابل الغَيث والقوة، لكنهم لم يوافِقوا ولو على سبيل التَّجربة، لم يؤمنوا بألسنتهم، ولم يُبدوا أيَّ لينٍ تِجاه تلك الصَّفقة العظيمة، لقد أُشْربوا في قلوبهم عبادةَ الدنيا ومتاعها، فمَنعهم ذلك من الإيمان، رأوا الإيمانَ سجنًا سيُملي عليهم ما يفعلون وما يتركون، سيعيشون بميزانِ الشَّرع؛ يستيقظون مبكرًا عند الفجر للصلاة، ولن يتمتَّعوا بالنوم حتى الظَّهيرة، لن يَشربوا الخمرَ الذي عَشقوه، لن يَقربوا النساءَ إلا حلائلهم، لن يَمشوا مُستكبرين في الأرض، سيسيرونَ على الأرض هَونًا، ولن يَبطشوا بالضُّعفاء، وإن فَعلوا سيَقتصُّ الشرع للمَظلوم، سيضطَّرون للصيام أيامًا معدوداتٍ بعد أن كان الطعام متاحًا طوال الوقت، لن تكون حياتُهم عبثًا كما كانت،... إنها تَبعاتُ قول "لا إله إلا الله"، البعضُ يراها حبسًا للحُريات وتَقويضًا للملذّات، ولو علموا أنَّ هذا التضييق فيه السعادةُ المطلقة، فيه فرحُ الروح ورقيُّها وتَزكيتها، هذا المنعُ عينُ العطاء؛ إذ به ينفكُّ الإنسانُ من سجن الماديات إلى آفاق الإيمان، يكسر قيودَ عبوديَّته لشَهواته، فيُصبح حرًّا طليقًا لا يعبد غير الله، فيتحصَّل على لذةٍ لا تُضاهيها كنوز الدنيا ومَفاتنها.

كانت مُغرياتُ الحياة في عيون عادٍ أهمَّ من دعاء الإيمان، لم يُقبلوا على الاستغفار والتوبة، ردّوا في استعلاءٍ على هودٍ بأنه لم يأتهم ببرهانٍ على ادِّعائه: (لا إله إلا الله وأنَّه رسولُ الله إليهم)، فلن يغيّروا دينهم لمجردِ أنه أمرَهم بذلك، وأنهم لن يتَّبعوه.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (هود: ٥٣).

أقام هودٌ عليهم الحجَّة، فهو ليس لديه دافعٌ ليَفتري الكذب، لا يطلب منهم مالًا ولا منصبًا، بل وعرضَ عليهم وَفرةً عظيمة في الأرزاق والأولاد في مُقابل التوبة، كانت هذه معجزةً كافية؛ إن أردتُّم برهانًا فها هو، لكنهم لم يُريدوا الحقَّ ولا الهداية، أرادوا العنادَ وحياتهم العبثية.

كان لا بدَّ من تَفسيرٍ لدعوة هود عليه السلام، فهو لم يطلبْ مقابلًا، فقالوا إنَّ الآلهة مسَّته بسوء، فهو يهذي ويَتكلم بالخرافات؛ لذلك لن نسمعَ له ولن نُطيعه، هكذا تتَّهم الأقوامُ الكافرة رسلَهم، فيقولون عليه مجنون أو كاهنٌ أو شاعر أو كاذبٌ أو سَفيه، يَصمونه بأشنَع الصفات وأقبَح السِّمات، يروْنه ليس جَديرًا بالاتِّباع، فهو ليس غنيًّا أو قويًّا، هُم مَفتنون بالعُتاة الجبّارين، فهُم السادة الصادقون الذين يجب تقليدُهم والإنصاتُ إليهم، فهُم النخبة مُحتكرو القوَّة والمال والنفوذ، ومَن يَقْتَفِ آثارَهم ربما يَناله بعضُ الفتات والحماية.. ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ (هود: ٥٩).

لا داعي أن تَقتدي بأغنى رجلِ أعمال أو أقوى مُصارع أو أعظمِ رئيس، ليس كلُّ مُهم (VIP) يَصلح قدوة، ربما تجدُ ضالَّتك في ذلك المتواضِع التقي

النَّقي الذي لو أقسمَ على الله لأبرَّه. أصحابُ الرسالات السامية رجالٌ لا تُلهيهم المظاهرُ ولا يَكترثون للمال أو السلطة أو الشُّهرة، ربما لا يَعرفهم الكثيرُ بيننا، لكنَّ السماء تعرفهم، أسماؤهم تترددُ هناك لكثرة ذِكرهم وحُسن أعمالهم.

اتَّفق القوم على أنَّ هودًا عليه السلام سَفيه أو مَمسوسٌ مَخبول ولا يجب اتِّباعه، عندئذٍ أعلن شهادتَه وتحدّيه لهم، فشهدَ أنه لا إله إلا الله، وتبرّأ من شِركهم وتحدّاهم أن يؤذوه، تحدَّى القوم أولي العُصبة والقوة، تحدّاهم جميعًا وآلهتَهم وهو فردٌ واحد، تحدّاهم أن يُصيبوه بسوء، إني مُتحصِّن بربي الواحدِ الأحد ومُتوكِّل عليه، وأنتم استَعينوا ببَعضكم وبهذه الأصنام التي تدَّعون نفعَها، هلمّوا جميعًا ودون إنذار، لنرى مَن الصادق فينا.. ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ (هود: ٥٤- ٥٦).

ألَمَ يَطلبوا برهانًا على صدق رَسولهم، هذا التحدي كان إحدى الآيات الدّالة على صدقِه، فهُم الأقوياء الذين يَبطشون جبّارين بأعدائهم، فكيف يتحدّاهم رجلٌ واحد ولا يستطيعون النَّيلَ منه!

يؤكدُ هودٌ عليه السلام أنَّ الله هو الإله الحقُّ المُتحكِّم في أمور عبادِه وليس تلك الأوثان التي لا تُغني عنهم شيئًا.. ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، وهو بذلك يتحدّاهم أن يُصيبوه بِشَر، فأنتم نَواصيكم بيدِ الله لا تستطيعون تحريكَ ساكنٍ إلا بإذنه، ولا يمكن أن تؤذوني فأنتم عاجزون أمام قدرةِ الله، حينما يتمكَّن اليقينُ من قلبِ المؤمن فإنه يطمئنُّ وَتَصغُر في عينه كلُّ التحديات، كلُّ الجبابرة، كلُّ العالم.

المؤمن واثقٌ في ربه، يتوكَّل عليه في كلِّ أمره، يَعرف أنه ناصرُه ومؤيدُه، لا يهتمُّ بكثرة الأعداء، ولا يَفتنُه شيوعُ الباطل، يعلمُ أنَّ الأمة لو اجتمعَت على أن يَنفعوه بشيء لم يَنفعوه إلا بشيء قد كتبَه الله له، وإنِ اجتمعوا على أن يضرّوه بشيء لم يضرّوه إلا بشيء قد كتبَه الله عليه[1].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ يُجازي المُحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بعِصيانه، يأمر عبادَه بالسَّير على الطريق الواضح الذي لا اعْوجاج فيه، يأمرُهم بالعدل والإحسان ويَنهاهم عنِ الفحشاء والمنكر، فهذا هو الدينُ الصَّواب الأحقُّ بالاتِّباع، وليس ما أنتُم عليه من ضلال وغيٍّ وعَبث. دائمًا ما تجدُ المعاملاتِ المباحة والحلالِ واضحةً لا غموضَ فيها ولا تَحتاج إلى تَبرير، أما الحرامُ ومعاملاتُه فهو مليء باللَّبْس والالتفافِ والمبررات، فلن تجدَ أحدًا يَشرح لك سببَ خروجه للصلاة أو إخراجِه للصدقَة، لكن ستَجد مَن يحاول تبريرَ قَبول الرشوة أو تَدخين السجائر بطرقٍ مُلتوية، باحثًا بين الأحكام الفقهية على ما يتمسَّح به.

حذَّر هودٌ عليه السلام قومه، فهو مُكلَّف بإيصال رسالة الله ﷻ لهم، فإن تولَّيتم وعاندتُّم واستكبرتم ورفضتُّم الإيمان؛ فسوف يُهلككم، ويأتي بقومٍ غيركم، قوم يَشكرونه ويَعبدونه ولا يُشركون به، إما أنتم فلن تَستطيعوا أن تؤذوه شيئًا، وستُصبحون حينها خاسرين مَضرورين نادِمين، فقد كتب اللهُ لأغلبنَّ أنا ورسلي، سبحانَه هو القويُّ العزيز، الذي لو اجتمعَ أهلُ الأرض جميعًا على معصيتِه فلن يضرّوه بشيء، إنما يتقرَّب إلينا بمَغفرته

(١) مقتَبس من الحديث: "يا غلام إنيّ أعلمُك كلمات، احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجده تجاهَك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعَت على أن يَنفعوك بشيء لم يَنفعوك إلا بشيء قد كتبَه الله لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف". صحيح الترمذي: ١٥١٦.

ورَحَماتـه وهـو أغنـى الأغنيـاء عنّـا. هكـذا حثَّهـم هـودٌ عـلى الإيـمان، وخوَّفهم مـن مَغبَّـة الكفـر.. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ (هـود: ٥٧).

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾: ببركـةِ هـذا التـوكل الصـادق عـلى الله لم ينلْ نبـيُّ الله هـود عليه السلام ومعـه الثلَّـة المؤمنـة أيّ سـوء، وكيـف يَصلهـم أذًى وهـم في حِفـظ الحفيـظ! اسـتودعَ نفسَـه عليه السلام عنـد مَـن لا تَضيـع ودائعُـه، فـكان في أمـنٍ وسَـلام. ليتنـا نَسـتدعي اسـمَه الحفيـظ في كلِّ مـأزقٍ وعنـد كلِّ نازلـة، فهـو على كلِّ شيء حفيـظ؛ حفيـظ للجنـين في بطـنِ أمـه، حفيـظ للمُسـافر في السـماء أو عـلى الطريـق أو في البحـر، حفيـظ لـك في نومِك وفي صَحـوك، حفيـظ لأولادِك وأهلـك وأموالِـك، وهـو الحفيـظُ عـلى عقلـك وعلمـك وروحـك وإيمانـك.

* * *

الحفيدُ: لقد خسرَ ملأ عادٍ بكفرِهم وتسبَّبوا بخسارةٍ كبيرة لقومهم.

الجدُّ مُتعجبًا: نعم، الملأ يُمثلون القدوةَ لباقي مُجتمعهم، وللأسف كانوا قدوةً سيئة، وهناك أيضًا تأثيرُ المجتمع على أفراده، ولذلك على كلٍّ منّا أن ينظرَ بمَن يقتدي فيُقلده، ولا يكون إمعةً يُساير مَن حوله في الإساءة والإحسان.

الحفيدُ: وكأنَّك يا جدي تريد قولَ شيء لي، هاتِه ولا داعي للتَّورية.

الجدُّ: يُعجبني فطنتُك، أقصد أنَّ افتنانَ المرء بالفنّانين ولاعبي الكرة وتَقليدَهم في الملبس والشَّكل؛ ليس مؤشرًا جيدًا. ليتَك تَقتدي بالرُّسل والصحابة والعلماء.

الحفيدُ: وماذا أيضًا يا جدّي العزيز!

الجدُّ: الصُّحبة يا عزيزي، أحطْ نفسَك بصُحبة صالحة تَدفعك لعَمل الخير وتُذكِّرك بالله، فالله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾(التوبة: ١١٩)، فانتَقِ الصديقَ الخلوق المحافظَ على الصلوات، والحافظ لكتابِه، البارّ بوالديه.

الحفيدُ: شكرًا لك يا جدّي، وسأحاول تنفيذَ نصائحك الغالية.

***

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ

حاولَ هودٌ عليه السلام بشتَّى الطرق أن يأخذَ بيدِ قومه: عادَ للصلاحِ فتولَّوا عن نُصحه، ورغم أنه عرضَ عليهم عودةَ المطر والزروع والأولاد بعدَ انقطاعها لفترةٍ طويلة- قيل إنها ثلاثُ سنوات- مقابلَ التوبة، لكنهم تأبَّوا وترفَّعوا عن كلمةِ الحق، ورَموه بالسَّفه والكذب، فجرَّب معهم لغةَ التخويف، فإنَّ بعضَ الناس لا يُصلحه غيرُ الزَّجر والوَعيد، فأنذرَهم عذابٌ من الله شديد.. ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ (الأحقاف: ٢١).

للأسف، لم يفلحِ الوعيدُ مع عاد، كما لم يَنفعِ التحفيزُ سابقًا، فقد تحدّوا نبيَّهم وسألوه أن يأتيهم بذلك العذابِ الشديد الذي خوَّفهم به.. فإنْ كنتَ صادقًا فأنزلْ بنا ما تخوِّفنا به، وهل هناك أصدقُ أو أطهر أو أنقَى من رُسل الله! لقد استهزأوا بالله ونبيّه واغترّوا بحلمِه عليهم. فلا تغترّ إن أجَّل عقوبتَك ومنحَك الفرصةَ تلوَ الأخرى لتَتوب عن مَعاصيك وتَستغفر من ذنوبك، واحذرْ عقوبتَه واستدراجَه للعُصاة المجرمين؛ ففي الحديث: "إنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى يُملي- وربَّما قال: يمهلُ- للظَّالِم، حتَّى إذا أخذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾(هود: ١٠٢)، الآية"[1].

(١) صحيح الترمذي، رقم: ٣١١٠.

كأنَّ إيمانَ قوم عادٍ مستحيلُ الحدوث! كان المنطقيُّ أن يَربطوا بين صدقِ هودٍ عليه السلام والإيمان برسالته، ولكنهم تمنَّوا العذابَ إن كان صادقًا! ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾ (الأحقاف: ٢٢).

لقد علموا أنَّ هذه الآلهةَ المزعومة لا تَستطيع أن تضرَّ أو تَنفع، ولكنهم في ولائهم مُستمرّون لها، إنه تحيزٌ للباطل، نوعٌ من الإخلاص للضَّلال يحتارُ في تَفسيره العقل. كبرٌ وعنادٌ وإغلاق للعقول والقلوب، لن نَتغير ولن نتركَ ما وجَدنا عليه آباءنا، هذه الآلهة هي هويتُنا، لا نترك عبادتَها أبدًا!

يقول أهلُ الحكمة إن: "العناد يورثُ الكفر" وقد يكون مرجعُ المعاندة إلى نَقصٍ في المعرفة؛ لذلك يأتي دورُ الرُّسل والدعاة ليَنشروا العلمَ والحكمة فيَلِين الجاهلُ الباحثُ عن الحق، أما ذلك العنادُ المنبَعث من نفسٍ مُتكبرة تأبى الانصياعَ للحق، وتفضِّل الموتَ على الاعتراف بالخطأ؛ فهذا مرضٌ عُضال، يستحيل علاجه.

لقد اختارتْ عاد عذابَ الله عِوضًا عن هدايتِه، ولكن كيف اختاروا طريقَ الهلاك بأيديهم وَسَعوا له؟ كيف تحدّوا ربَّهم القويَّ بأن يُعذبهم، أيُعقل أن تُناطح ملكَ الملوك عز وجل وأنتَ كائنٌ ضعيف! لو أصابَك فيروس لأنهكَتك الحمَّى ليالي وأيامًا، وما ذُقت النوم ولا الراحة، وربما ما استطعتَ النهوضَ من فراشك!

في ظلِّ تهكمٍ واسْتهزاء واستعلاءِ عاد، يردُّ هودٌ عليه السلام بكل تَواضع لله، وهذا هو شأنُ جميع رسل الله؛ مُخبتين خاشعين لربهم في كلِّ موقفٍ وزمن، فيقول لهم إنَّ العلم بيدِ الله وحده، هو مَن له مقاليدُ السموات والأرض ومَصائر العباد، أما أنا فرسولُ الله أبلِّغ ما يأمُرني به ربي وربُّكم، لست

في خِصام أو عَداوة معكم، ولكنكم تَجهلون عِظمَ ربكم وحقَّه عليكم، تَجهلون صفاتِه والتي منها الحلمُ عليكم، تَجهلون قدرتَه على عذابكم وتَدميركم وهلاكِكم، تجهلون حقيقةَ أنكم أضعفُ من جندِ الله، ولا تستطيعون البطشَ بهم.. ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأحقاف : ٢٣).

ربَّما كان قوم عادٍ خبراءَ في الزراعة وأنواع النباتات وطُرق الري، وخبراءَ في فنون الحرب والبَطش بالأعداء، وبارعينَ في دراسات البناء والتَّشييد للقصور والمصانع؛ لكنهم جَهلوا أهمَّ الحقائق، جَهلوا العلمَ المُفيد الذي به يتقرَّب العبدُ لربه حتى ينالَ رضاه ومَغفرته، هذا العلمُ يحتاج إلى قلوب طيبةٍ ونفوسٍ زكية، تتطلع إلى النور وتتشوَّق إلى الحق.

أمسكتِ السماء عنِ المطر زمنًا عن الأحقاف- قيلَ ثلاث سنوات-، وكانت عادٌ في انتظار الغَيث بفارغ الصبر، ورغمَ ذلك رفَضوا صفقةَ الإيمان مقابلَ المطر التي عرضَها عليهم هود عليه السلام، واستمرّوا على كُفرهم زمنًا، وإذا بالسماء مليئةٌ بالسحاب الثقيل، استَبشروا خيرًا، لا بدَّ أنها ستُمطر أرضنا، أتى الفرج، لقد كذبَ هود، مَكثنا وصَبرنا على ديننا وجاءتنا السحبُ الكثيفة المحمَّلة بالأمطار الغزيرة، إنها فرحة مُضاعفة؛ انتصرنا على هود وأغاثَتنا الإلهة، لم يأتِنا العذابُ الذي وعَدَنا إياه هود، بل جاء الخيرُ والنَّماء وهطول المطر...، لكن تأتي الرياحُ بما لا تَشتهي السفن.. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾(الأحقاف: ٢٤).

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ علينا التمهُّل قبل الحكم على الحوادث، فليس كلُّ ما ظاهرُه نعمة هو خيرٌ لنا، وليس كلُّ ابتلاءٍ

شَر، عسى أن نحبَّ شيئًا وفيه الهلاك، لعلَّ المنصبَ الجديد يرغم الموظفَ على إهمالِ أهله وأولاده، فيخربُ البيت ويشرَّد الأطفالُ وتتفرَّق الأسرة التي كانت سعيدةً هَنيئة من قبْل.

كان تغيرُ الأحوال الجوية وظهورُ السحاب الكثيف هو بدايةَ النهاية لقوم عاد، لقد بسطَ اللهُ لهم الكثيرَ من النِّعم، وأرسل إليهم رسولَه بالآيات والنُّذر فانْشغلوا بالعَطايا عن المُعطي ﷻ، وأطْغَتهم حياةُ التَّرف وتَنافسوا الدنيا، فقستْ قلوبهم وطُبعَ عليها بالكفر، ثمَّ أصابهم القحطُ سنين، لعلَّهم يعودوا إلى رُشدهم، لكنهم قد تَمادَوا في غيِّهم، وأعرَضوا عن ذكرِ ربهم والإيمانِ به، فأورَدوا أنفسَهم العذابَ الشديد.

كانت هذه التغيراتُ الجوية التي ابتَهجوا بها تحملُ إليهم العذابَ الشديد؛ ريحٌ شديدة تدمِّر كلَّ شيء، لقد أجيبَت دعوتهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾، طلبوا من نَبيهم أن يأتيهم بالعذابِ إن كان صادقًا، فإذا بغَضب الله يَنزل بساحتهم، ريحٌ تحطِّم كلَّ ما أولَعوا به، حطَّمت بيوتهم وقصورَهم ومصانعَهم وحدائقَهم وبهائمهم وأموالهم، كلّ ما اغترّوا به من زينة الدنيا تهدَّم أمامَ أعينهم في لحظة، كلّ ما عملوا واجْتهدوا من أجلِه راح سدى، كم كان ذلك مؤلمًا لهم!

كلُّ مَظاهر التَّرف والنعيم التي عادوا الله ورسولَه من أجلها انهارتْ في لحظة، تحوَّل فرحُهم لبؤس، وضَحكهم لصُراخ، واستهزاؤهم لحَسرة، ثمَّ نالَهم الهلاك، فلم يبقَ منهم غيرُ ذكرى وأثر ، وأصبَحوا عِبرة لمن جاء بعدهم، وقد جاء في تَفسير القرطبي عن تصوير مَشهدِ العذاب: "ويعني قولهم : فأتنا بما تَعدنا ريح فيها عذابٌ أليم، والريحُ التي

عُذِّبوا بها نشأتْ من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هودٌ من بين أظْهُرهم، فجعلت تَحمل الفَساطيط (الخيام) وتَحمل الظَّعينة فترفعُها كأنها جرادة، ثمَّ تَضرب بها الصخور ". قال ابنُ عباس: أولُ ما رأوا العارضَ قاموا فمدّوا أيديهم ، فأولُ ما عرفوا أنه عذابٌ رأوا ما كان خارجًا من ديارهم من الرجال والمواشي تَطير بهم الريحُ ما بين السماء والأرض مثلَ الريش، فدخلوا بيوتَهم وأغلقوا أبوابَهم، فقلعتِ الريحُ الأبواب وصَرَعتهم ، وأمرَ اللهُ الريحَ فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحتَ الرمال سبعَ ليالٍ وثمانية أيام حُسومًا، ولهم أنين، ثمَّ أمر اللهُ الريحَ فكشف عنهم الرمالَ واحتملتْهم فرَمَتهم في البحر، فهي التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، أي: كلّ شيء مرَّت عليه من رجال عادٍ وأموالها. قال ابنُ عباس: أي: كلّ شيء بُعثت إليه".

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ (الأحقاف: ٢٤).

كان استئصالًا فريدًا للقوم، فسلَّط عليهم الريحَ العاتية ليس لساعةٍ أو يوم؛ بل لمدَّة سبعَ ليالٍ وثمانية أيام مُتتالية، لعلها عاصفةٌ أو إعصار أتى على كلِّ شيء، فكان العذابُ على شاكلَة النعمة التي لم يَشكروها، كانت الريحُ من قَبل تأتيهم بالسُّحب الماطرة فتَروي زروعَهم ودوابَّهم، وتَزدهر الدنيا من حولهم، فلمّا كفروا جاءتِ الريحُ بالخراب والدَّمار، فهلكوا وصاروا كالنَّخل الخاوية، وذلك بما خلتْ نفوسُهم وقلوبهم من الإيمان.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ (الحاقة ٦- ٧).

نعظِّم الدنيا وما فيها، حتى يتصوَّر المرءُ أنَّ الشمس تشرق وتغربُ من أجل مجتمعِه الصغير، وأنَّ الكرةَ الأرضية ليس فيها أهمّ ممّا يجري له، لو ترقَّى في عمله فقد بلغ عنانَ السماء، لو امتلكَ بيتًا فكأنما حِيزَت له الدنيا، وما يدري أنَّ هذا كله لا يوازي شيئًا في مُلك الله، وأنَّ الدنيا وما فيها لا تساوي جناحَ بعوضة، وأنَّ كلَّ هذا إلى زوال، وأنَّنا في دار اختبارٍ ولسنا في سباقِ تَملُّك، وأنَّ السعيد مَن ملأ صحيفتَه بالعمل الصالح وليس مَن زادَ رصيده وتضخَّم في المصارف، فانظرْ للدنيا بما تَستحقُّه من احتقار وكنْ من العابدين الشاكرين، فتلكَ عادٌ التي لم يُخلق مثلها في البلاد تقدُّمًا وازدهارًا وعظمة وحضارة وقوة.. دمَّرها ربها ولم يبقَ لها أثرًا لما طغى عليها حبُّ الدنيا وكفَرَت بالوهّاب ﷻ، أما المُتقون الشاكرون فنجّاهم المولى ﷻ من ذلك العذابِ وتلك النهاية المؤلمة، ففازوا بالدنيا والآخرة معًا.. ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ (هود: ٥٨).

***

بينَ يدي القصَّة:

تُخبرنا الأحداثُ عن قوم هود: هُم ينتمون لمجتمعِ الوَفرة الاقتصادية، حيث تتوفَّر لهم الضروريـاتُ والكماليات، مجتمع تَزيد فيه الموارِدُ من مياه وزروعٍ وكافَّة وسائل تَرفِ الحياة، كان هذا هو الامتحانَ الذي كتبَه اللهُ عليهم، وكانَ عليهم أن يَشكروه على ما وهَبَهم، لكن ما حدثَ كان خلافَ ذلك، فتحوَّلوا إلى دنيويّين وماديّين، حيث يميل مجتمعُ الوَفرة إلى:

• الرغبة في الاستمتاع بالحياة الدنيوية: حيث تركيزُ الأفراد على الاستمتاع بالحياة الدنيوية، وتَحقيق المزيد من الراحة والمتعة المادية. وهو ما يؤدّي إلى تَخفيف الاهتمام بالجانب الروحي أو الديني.

• الانشغال بالأعمال والمسئوليات: للحفاظ على الثروةِ وتَحقيق المزيد منها. يؤدّي للانشغال بالأعمال والمسئوليات على حساب الوقت المخصَّص للعبادة والتدين.

• الشَّهوة والانغماس في المادية: يمكن أن يتسبَّب الثراءُ والوَفرة الاقتصادية في الانشغال المفْرِط بالمتع الزائدة والشَّهوات المادية والاستهلاكية. هذا الاهتمامُ الزائد بالمادة يحجمُ القيمَ الروحية والدِّينية، ويُقلل من التَّركيز على العبادةِ والروحانية.

• الطموح المبالَغ والطمع: قد ينتجُ عنِ الوفرة الاقتصادية وجودُ بعض الأفراد الذين يُظهرون سلوكياتٍ طَموحة وطمّاعة. بينما يسعونَ لتَحقيق المزيدِ من الثروة والسلطة، ينسون أمرَ الآخرة والمنافسة على أعمالها.

• الثقة الزائدة بالنَّفس: يكون للأفراد في هذا المجتمع ثقةٌ قوية في قدراتهم وقدرتهم على تحقيق النجاح. يتمتَّعون بثقةٍ بالنفس تساعدُهم

على مواجهةِ التحديات والمخاطر بثقةٍ وتفاؤل، وهو ما يُقلل من تَوكُّلهم على خالقهم.

ومعَ ذلك، يجب الإشارةُ إلى أنَّ هذه التأثيرات السابقة ليست ضرورة، ولا تنطبقُ على جميع الأفراد في مجتمع الوَفرة، هناك أفرادٌ يحققون التوازنَ بين الازدهار الاقتصادي والجوانب الروحية والدينية في حياتهم.

كانتِ الرفاهية في بؤرةِ العقل الجَمعي لقوم عاد، فعاشوا حياةً عَبثية لا هدف جِديّ فيها، حيث شكَّلت الشهواتُ والملذات غطاءً وغِشاوةً على أعينهم، حجبت بَصيرتهم عنِ الحق، فلم يعودوا يُبصروا إلا الدنيا وما فيها؛ لأنَّ الآخرةَ غَيبية سماوية لا تُدرَك بالحواس وإنما تُدركها الروحُ لأنها سَماوية مثلها، وأما الحواس مِن سمعٍ وبصرٍ... فهي تابعةٌ للجسد، وهو مَخلوق من الأرض مُنجذبٌ إليها ، وكلما التفتتِ الحواس إلى الأرض وزينتِها ازدادتِ التصاقًا بالأرض وغطَّت على الروح بغشاوةٍ فحَجَبتها هذه الغشاوةُ عن التطلُّع للآخرة والسَّعي لها، ولذلك كانت شهواتُ الدنيا أكبرَ حجابٍ عن النظر إلى الآخرة.(١)

أثَّرت حياةُ الشهوات والملذّات على عاد، فغَرَّتهم قوتهم وتفوقُهم على جيرانهم، وقالوا مَن أشدُّ منّا قوة، فهُم القوى العُظمي المسَيطرة على مُجريات الأمور، مما جَعلهم مُتكبرين يبطشون بعنفٍ بمَن يقف في طريقهم، كما أورَثَتهم هذه الحياة عنادًا في طباعِهم فكانوا صِعاب المراس؛ لذلك أعرَضوا عن دعوةِ الحقِّ ورفضوا الانصياعَ لصوت الإيمان.

(١) قصة الترف، ص ٥٦، خالد بن محمد الشهري، بتصرف.

أما نبيُّ الله هود عليه السلام فيَظهر من أحداث القصة، أنه شخصيةٌ شجاعة لم يهَبْ قومَه الأقوياء الجبارين، وتحدّاهم بأن يتعرَّضوا له بسوءٍ رغمَ علمه بقوةِ بَطشهم، لكنه في حِمى القويِّ العزيز، أقبلَ على الله بدعوتهم وتحدّاهم علانية ولم يخفْ في الله لومةَ لائم. كما نلحظُ في دعوته ذكاءً في التعامل؛ فكان يستخدم النِّعمَ والملذات التي يعشقونَها لتَحبيب الله لهم، فهو المُعطي ﷻ لهذه النعم فاعْبدوه يُديمها ويُكثرها لكم، كما أنه أكَّد على تقوى الله؛ فمشكلةُ القوم أنهم لا يخافون ولا يَهابون أحدًا لقوَّتهم ومَنَعتهم، فبيَّن لهم أنَّ الله قادرٌ على أن يُعذبهم ويُهلكهم، وأنَّه هو مَن أعطاهم أسبابَ القوة والعظمة التي يتمتعون بها.

ويتجلَّى من قصةِ عاد عظمة اسميه "القابض الباسط"، قال البَيْهَقِيّ: "القَابِضُ البَاسِطُ هُوَ الذِي يُوَسِّعُ الرِّزْقَ ويُقَتِّرُهُ، يَبْسُطُهُ بِجُودِهِ وَرَحْمَتِهِ، ويَقْبِضُه بحكمته"[1]، بسطَ الأرزاقَ والنعمَ على قوم عادٍ وزادَهم بَسطةً في الجسم، فلمّا أعرَضوا عن دعوتِه قبضَ عنهم المطرَ والأولاد، لعلَّهم يرجعون.

ويَتجلَّى من قصةِ عادٍ اسمُ الله "العزيز": فهو الغالبُ الذي لا يُعجزه أحد، وبعزَّته يَنصر أولياءه ويَهزم أعداءه، فمَن تكون عادٌ للتَّجبر للدرجة التي تجعلهم يسألون مَن أشدُّ منّا قوة! فجاءها الردُّ الصاعق الماحق.. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟ فلله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين.

ويتجلَّى أيضًا اسمُه "القوي": الذي يقدرُ على كلِّ شيء، أهلكَ عادًا ببيوتِها وأهلها ودوابِّها وقصورها ومصانعِها على ما فيهم من قوَّة ومَنَعة.

(١) الأسماء الله الحسنى تصنيفًا ومعنى، ماجد بن عبد الله الجبار، ص: ٤٠٩، وعَزاه للبيهقي.

وهو "الحفيظ": الذي حفظَ رسولَه هودًا من قومه، وقد تحدّاهم أن يُصيبوه على كثرتهم بمَكروه، فحفظَه اللهُ من شرورهم ولم يَستطيعوا أن يؤذوه.

❊ ❊ ❊

رجلٌ رشيد

الحفيدُ: سؤالٌ يُحيرني يا جدّي، وأتمنى أن أجدَ الإجابةَ المُقنعة عندَك.

الجدُّ: أشمُّ رائحةَ الجدال! هاتِ سؤالك يا بُني!

الحفيدُ: أليس الإسلامُ يَضمن الحريةَ لكلِّ فرد؟

الجدُّ: مفهومُ الحرية في الدين ليس مُطلقًا، ولكنه مقيَّد بالشرع، لماذا لا تسأل مباشرةً عمّا يدور في ذهنِك بدلًا من المُقدِّمات والمناورات.

الحفيدُ مُطأطئًا رأسَه: بصراحةٍ يا جدّي لا أعرف كيف أفاتحُك في هذا الموضوع.

الجدُّ: الأفضلُ أن تتغلب على حيائك، ولا تُبقي الأسئلة تحيِّرك.

الحفيدُ بصوتٍ منخفض: لماذا لا نُعطي الحرية للمثليّين جنسيًّا؟ إنه اختيارُهم، ولكني أرجوكَ يا جدّي لا تُسِئ فَهمي، فأنا لستُ مثلهم ولا مؤيدًا لهم.

الجدُّ: الشذوذُ أو المثلية أو اللّواط أحدُ الكبائر، وأمَرَنا ديننا أن نَنهى عن الفاحشةِ ونأمرَ بالمعروف، فالمسلمُ إيجابيٌّ ويهتمُّ لشأن المجتمع؛ لأننا في سفينةٍ واحدة، نغرق سويًّا أو نَنجو معًا، هكذا مثَّلها لنا الرسول ﷺ، وهذه الفاحشةُ تَستوجب لعنةَ الله وتسبِّب الأمراضَ اللَّعينة مثل الإيدز، كما تهددُ البشريةَ جَمعاء، فلو أصبحَ الجميعُ مثليّين فلن يولَد أطفالٌ جُدد، وسيَفنى الجنسُ البَشري ويَنقرض.

الحفيدُ: إذًا فهذا السلوك يؤذي كلَّ المجتمع وليس هؤلاء الشواذ فقط.

الجدُّ: هذا صحيح.

الحفيـدُ: لكـنْ يـا جـدي مَـن يُنكـر هـذه الحريـة الآن يُصبـح متخلفًـا رجعيًّـا في عيـون المتحضريـن!

الجـدُّ: الشـذوذُ سـلوكٌ رَجعـي وجاهـلي كان قبـلَ آلاف السـنين، وليـس أمرًا جديـدًا أو رُقيًّـا، لقـد شـاعَ في قـوم لـوط فأهلكَهـم الله وأنـزلَ عليهـم أشـدَّ العذاب، تعالَ أحكي لك الحكاية...

* * *

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ!

هـذه المـرَّة تبـدأ القصـةُ برجـلٍ صـدقَ الله ورسـولَه في حـين أنَّ باقـي القـوم أنْكـروا وعانَـدوا وكفَـروا، هـو لـوطٌ عليه السلام رفـضَ أن يخـوضَ مـع الخائضـين، آثـرَ أن يتَّبـع الحـقَّ عـلى مُجـاراة مَـن حولـه، آمـنَ بالحـق الـذي نـزل عـلى نبـيِّ الله إبراهيـم عليه السلام وصـدقَ اللهَ ورسـوله ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ ﴾(العنكبويـت: ٢٦). واختـارَه اللهُ وجعلَـه أحـدَ رسـله المُكرمـين ﴿ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣ ﴾ (الصافـات: ١٣٣).

حـين تَختـار جَنـبَ الله عز وجل فـلا شـكَّ أنـك مـن الفائزيـن، ربـما تَدفـع ثمـنَ اختلافـك عـنِ الصحبـة، قـد تَفوتُـك الأمسـية الجَميلـة، وربـما تتعـرَّض للسـخرية؛ لكـن كلُّ ذلـك يَهـون في رضـا الله، سـيُعوِّضك أضعـافَ مـا فَقَـدت، سيُسـعدك أكثـرَ ممّـا تألمـت، ثـقْ في الله كـما وثـقَ لـوطٌ عليه السلام في وَعـده عز وجل، صحيحٌ أنـه هاجـرَ مـن بلـدِه وعانـى في سـبيل دعوتـه، ولكنه أمسَـى مـن القلَّـة الشريفة التـي اصْطفاهـا اللهُ وجعلهـا أهـلًا لحَمـل رسـالتِه للعالمـين، وبمِثـل هـذا اليقـين رسـمَ الصَّحابـة الكـرامُ أسـماءهم بحـروفٍ مـن نـور، فمَـن كان سـيَعرف أبـا بكـر وعمـر وعثـمان وعليًّـا (رضي الله عنهـم) بعـدَ أكثـر مـن ١٤٠٠ سـنة مـن مَماتهـم لـولا إيمانُهـم الصـادق ودفاعُهـم المسـتَميت عـنِ الحـق، وفـوقَ كلِّ ذلـك اسـتحواذهم عـلى رضـا مَلـكِ الملـوك عز وجل وفَوزهـم بالدَّرجـات العـلا في الآخـرة!

كان إبراهيـمُ عليه السلام مضطَّهَـدًا عنـد قومِـه ولم يؤمـنْ بـه إلا القلَّـة، فهاجـرَ بـإذن

ربِّه ومعه لوطٌ من أرضِهم بالعراق إلى الشام أو فلسطين، ثمَّ بعثَ الله ﷻ لوطًا نبيًّا ورسولًا، قيل إنَّه أرسلَ إلى أهل (سدوم) في غور الأردن.

كانت سدوم قريةَ الخبائث، نالوا السبقَ في الفاحشة، اشتَهروا بالانحطاطِ والحَقارة، نَكسوا الفطرةَ التي خلق اللهُ عليها الناس، هوتْ بهم شَهواتهم لما دونَ البهائم، فحتى الحيوانات كانت أرْقى منهم؛ فلن تجدَ حمارًا ذكرًا يهوى ذكرًا مثله ويَترك الإناث، حتى الجماد الذي لا عقلَ له أو مشاعر، أقطابُه المتشابهة تَتَنافر، والمختلفة تَتَجاذب، لكنْ قوم لوط تمرَّدوا على قوانين الطبيعة وكانوا يأتون الرجالَ شهوةً دون النساء؛ وهو ما يعرف اليومَ بـ "المثليَّة الجنسية" أو "الشذوذ الجنسي".. ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾(العنكبوت: ٢٨).

الغريبُ أنَّ هذا الفُحش كان ظاهرةً جماعيَّة ولم يكن سلوكًا فرديًّا، فكيف انتشرَ هذا الداءُ بين أفراد المجتمع؟!، عندما تبدأ الفاحشةُ وتُنشر ولا تجدُ مَن يَنهى عنها ولا يُنكرها تَشيع وتَعمُّ رغمَ قبحها، فقد كان العربُ في الجاهلية وقبلَ بزوغ شمسِ الإسلام يَئدون البناتِ الصغارَ أحياءً، يقتلون بناتِهم بلا ذنبٍ خوفًا من العار، وأيُّ عار أكبر من أن تُقتل طفلةٌ صغيرة لا حولَ لها ولا قوة! ورغمَ فداحة الجريمة فقد كانت مُنتشرةً بين القبائل العربية.

إنَّ تَزيين الشيطان للمَعاصي يجعلها تبدو برّاقة ومُمْتعة، رغمَ كثرة المساوئ الصحية والاجتماعية والمالية الملازمة للموبِقات، فما يزال الناسُ في إدمانٍ لها بسبب زخرفةِ إبليس لها، فيُصوِّرها لهم على أنها قمةُ اللذة؛

يَبيع لهم الوَهم، يَعدهم ويُمنّيهم بقضاءِ أحلى الأوقات، يُشعرهم بأنهم فوقَ السحاب يحلِّقون، ولكن ما هي إلا ثوانٍ ليُدركوا أنه سرابٌ كلَّما اقتربوا منه انقشَع، وبدلًا من التوقف يحاولون مرَّة أخرى جاهدينَ للوصول للنَّشوة المَنْشودة! هكذا غوَى الشيطانُ سدوم بالشّذوذ على ما فيه من قُبح؛ فالموضعُ الذي يشتهونَه هو مَخرجٌ للفَضلات العَفِنة، تَشمئزُّ منه النفوس، لكنَّ الشيطان سوَّل لهم فرأوه حسنًا، كما أعْماهم عنِ النساء وما فيهنَّ من حُسن ونُعومة ودلالٍ ورغَّبهم بخشونةِ الرجال وجلافتهم وغلاظتهم.

كان رجالُ سدوم مُنغَمسين في شهواتهم الجنسية، استعرَتْ غرائزهم فعَميت أبصارُهم، ولم يُبصروا غيرَ طَرائدهم، كان شبقُهم يَقودهم للرَّذيلة فكانوا يأتون المنكرَ في أنديَتهم في العَلن وعلى الملأ، بلا حياءٍ ولا وجل، فزادوا الإثمَ آثامًا، وزادوا الطينَ بلَّة، فهُم يأتون الذُّكران وفي العَلن، وبالرَّغم منهم، فهي جرائمُ مركَّبة.

فإن كانت أنفسُهم طوَّعت لهم الذكورَ من دون النساء، فأين ذهبَ الحياءُ منهم عندما مارسوا الرذائلَ أمام أعين الجميع! وإنِ اسْتَساغوا العلنَ فأين المروءةُ في إجبار الغلمان على الفاحشَة رغمًا عنهم!؟

ولم تقفْ أخلاقُهم السيئة عند هذا الحدِّ من الرذيلة؛ فقد كانوا يقطعون الطريقَ على المارَّة، وكانت مجالسُهم مَليئة بالمُنكرات.. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ (العنكبوت: ٢٩).

إنَّ اغتصابَ الذكور علانية يَنمُّ عن شخصيةٍ سادِية تستمتعُ بتَعذيب ومعاناةِ وإهانة الآخر، يستلذّون بنَظرة الذلِّ في عيون ضحاياهم، يطربونَ

لسَماع صراخِ فَريستهم، وهم بذلك يصلونَ لإشباع شهوتهم المريضة في إظهار قوَّتهم وفُحولتهم وسيطرتهم. هي نفوسٌ قاسية مريضة، لا تأبَه بما تُسببه للآخرين من آلامٍ جسدية ونَفسية، بل وعلى العكس كلما زادَ مقدارُ العذاب الذي يتسبَّبون به تزيد النشوةُ وتشبع غرائزَهم، وكلما ارتكبوا هذه الممارساتِ الإباحيةَ الشاذَّة نَمَا شَغفُهم لتكرارها.

بدأ لوطٌ عليه السلام دعوتَه لقومه بالنهي عن الفاحشة، فكيف يدعوهم إلى التوحيدِ والتقوى والصلاة والزكاة، وقلوبُهم موحِلةٌ في الشهوات، تَتَمركز حياتُهم حولها، تَشغلُ عقولهم! لا بُدَّ من التَّخلية أولًا، التوقُّف عن الفواحش حتى يُصبح للإيمان منفذٌ يَدخل منه، الإنسان المنغَمس في شهواته ومَعاصيه يَندر أن يتأثَّر بسماع آيةٍ أو موعظة، فالخطيئةُ تُحيط بصاحبها وتصبحُ كالشَّرنقة تخنقُه وتحجُب عنه نورَ الإيمان.

دعا لوطٌ عليه السلام قومَه لتركِ المنكرات، استَنكرَ أفعالهم الخبيثة وسألَهم مُستنكرًا: أتأتونَ الفاحشةَ في مَجالسكم وتَقطعون السبيل، فما أنكَروا أفعالَهم وما اسْتَحوا من جَرائمهم؛ بل تَمادوا في طُغيانهم وطالَبوا بإخراجِ آل لوطٍ من قريتهم، وماذا كانت تُهمةُ آل لوط! كانت جريمتُهم التي استحقّوا عليها الطردَ من القرية أنهم أناسٌ يتطهَّرون، كانوا مُختلفين عنهم، أرادوا أن يكون الجميعُ موحلينَ في الرّذيلة، لا يريدون أطهارًا بينهم يأمرونَهم بالعُدول عن الفواحش، فلتكنْ قريتهم كلها رجسٌ ونجاسة، لا مَوضع لراشدٍ يَحكم شهوتَه ويَنهى عن المنكر ويتحرَّى الحلال.. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (النمل: ٥٦)

لا بُـدَّ أن التغيـيرَ الـذي حـدثَ لسـدوم قـد أخـذ فـترةً مـن الزمـن حتـى صـار الشـذوذُ أصـلًا عندهـم، يبـدأ الأمـرُ بحـوادثَ فرديـةٍ ثـمَّ يزيـد معـدلُ تكرارهـا، تكـون في البدايـة مُسـتنكَرَة ثـمَّ يبـدأ المجتمـع في تقبُّلهـا شـيئًا فشـيئًا، فدائـمًا أصعـبُ الحـرام أوَّلُـه، ثـمَّ يَسْـهُل، ثـمَّ يُستَسَـاغ، ثـمَّ يُؤلَـف، ثـمَّ يحلُـو، ثـمَّ يطبـعُ عـلى القلـب، ثـمَّ يبحـث القلـبُ عـن حـرامٍ آخـر[1]، وهكـذا أصبحـتِ الفاحشـة أمـرًا معتـادًا لا يُنكـره أحـدٌ في سـدوم، ولذلـك جاءهـم النبـيُّ (لوط)مـن غَـير وطنهـم. لم يكـن يألـفُ هـذا الانحـراف، ولم يُنشَّـأ في مجتمـعٍ يتَقبَّلـه ويَحتويـه ويتعايـش معـه، بـل جـاء بفِطـرةٍ سـليمة لم تتلـوَّث بعـادات القـوم.

ومـا نَـراه بـأمِّ أعينِنـا في عصرنـا الحـالي هـو تكـرارٌ لذلـك المشـهَد المهـين، لقـد كان الشـذوذُ الجنسـي يُعـرَف حتـى بدايـة السـبعينيّات عـلى أنـه اضطِّـرابٌ نفـسي؛ مـرضٌ يُعالـج المريـض بـه ليَعـود فـردًا طبيعيًّـا يـمارس السـلوكَ القويم.

انتـشرت ظاهـرةُ المثلية الجنسـية عـلى مدى أكثرَ من سـتين سـنة في المجتمعات الغربيـة بشـكل كبـير، وتحوَّلـت مـن مـرضٍ نـادر إلى اختيـارٍ مَقبـول وحريـةٍ مَكفولـة، وذلـك مـن خـلال وسـائلِ الإعـلام؛ حيـث تُـصرُّ في تقديـم صـورة نَمطيَّـة مُتكـررة لشـخصيات سـويَّة عـلى أنهـا "مِثليـة"، وبهـذا تَدعـو النـاس إلى التَّسـامح مـع هـذه الفئـة وقبولهـا، وليتَنـا وقَفنـا عنـدَ هـذا الحـد، ولكننـا وجَدنـا مؤخـرًا دعـمًا كبـيرًا للتَّرحيـب بهـؤلاء الشـواذ. والآن، فـإنَّ المعـارِض لهـذه الظاهـرة في هـذه الـدُّول أمسـى "شـاذًّا" عـن قيـم المجتمـع الجديـدة.

إنَّ قيـمَ التسـامح والحريـة التـي يعتنقهـا المجتمـعُ الغـربي قـد شـطتْ بعيـدًا، فـكلُّ فـردٍ يسـتطيع أن يفعـلَ مـا يشـاء، وعـلى الجميـع تَقبُّـل انفـلات الآخـر،

(١) مقولة مَنسوبة إلى الإمام الشافعي ولم نقف على صحتها.

لا ينبغي أن ينكرَ عليه أحدٌ أو يَنهرَه مَهما كان مُنكرًا وقبيحًا، وهنا يأتي دورُ الدّين ليَحمينا ويرسمَ لنا أطرَ الحرية والتسامح، فليست هناك حريةٌ مُطلقة، إنما هي مقيَّدة بالمباح في شرع الخالق لنا ﷻ، عقولنا قد تَخلط أحيانًا بين الصَّحيح والخطأ، لكنَّ الدين يفرقُ بين الحلال والحرام، "الحلالُ بَيِّن، والحَرَامُ بَيِّن"، لذلك علينا أن نَنتبه إلى هذه الموجَة الطاغية لقَبول الفواحش والتَّسامح معها، وأن نحذِّر أبناءنا منها ولا نَستهين بها، فقد كانت سببَ هلاكِ مَن قَبلنا، ولنا في قومِ لوطٍ عبرة.

إنَّ التسامح مع صغائرِ المحرَّمات وتكرارها يؤدّي إلى ارتكاب الكبائر، هكذا تَساهلتِ المجتمعاتُ الغربية مع ظاهرةِ الاختلاط بين الجنسين بادئ الأمر، وشجَّعته وجَعلته دليلًا على التَّحضر، ومالبثَ أن قادهم إلى العلاقاتِ غير الشرعية؛ فشاعَ الزنا بمُختلف صوره، وأمسَت ظاهرةُ الصديق الحميم (Boyfriend /Girlfriend) لا تسبِّب خجلًا أو حرجًا، ثمَّ تعددتِ العلاقات المُحرَّمة بين الرجال والنساء، فتارةً علاقات عابرة، وتارةً جنسٌ جماعي، وأخرى تَبادل الشُّركاء، وأحيانًا جنسٌ مع حيوانات أو عرائس، فكانت النتيجةُ اختلاطَ الأنساب وضياعَ الحلال هناك، فهل يَقفوا عند هذا الحدّ! لا،أخذَهم الشيطان خطوةً أبعد وهي الشذوذُ الجنسي أو المثليَّة، وبعدَ استساغتِه سيَبحثون عمّا هو أفجرُ منه، فلن يتوقفَ قطارُ الشهوات. إنَّ الغرائزَ الإنسانية مثل النار كلما زوَّدتها بالحطب اشتعلَت أكثر، لن تشبعَ أو تهدأ، الحلُّ الوحيد هو في تَرشيدها وكَبح جِماحها كما أمرنا دينُنا السمح، وليس كبْتها أو قَهرها، فالله ﷻ حرَّم الزنا ولكنه أحلَّ الزواجَ حتى يستطيعَ الإنسان أن يُشبع رغبتَه في الإطار الشرعي، الذي يؤدّي إلى إعمار الأرض وميلادِ جيلٍ جديد بين أبويْن سويَّين.

واصلَ لوط عليه السلام نُصح قومه بالبُعد عن الفجور والفُسوق الذي استَشرى في كلِّ بيوتِ سدوم.. ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (العنكبوت: ٢٨- ٢٩). ونَلحظ أنَّ خطابَ نبيِّ الله كان دائمًا في صيغةٍ استفهامية تفيد إنكارَه هذا الأمر وكأنَّه لا يصدِّق أنَّ هذا يحدثُ ليلَ نهار في القوم بلا مُواراة أو سترْ! فقد فَعلوا ما لم يَفعله قبلَهم قوم، وهو بذلك يوجِّههم إلى الفطرةِ التي عاش الناسُ عليها دهورًا قبلَهم، يقول لهم إنَّ الناس منذ بدءِ الخليقة يقضي الرجلُ شهوتَه مع زوجته، ولم يسبقْ لقومٍ من قبل أن يَشتهي الرجالُ فيهم الذكران، فلمَ بدَّلتم الفطرةَ النقية! ولِمَ تقترفونَ هذه المعصيةَ في ناديكم، ألا يكفي إثمُ المعصية، فأضفتُم إليها المجاهرةَ بالفاحشة، وكأنه مظهرٌ من مظاهر الشرف لكم!

في الحديثِ الشريف: "كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين، وإنَّ مِن المجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملًا، ثمَّ يُصبح وقد سَتَره اللهُ عليه، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد باتَ يَسترُه ربه، ويصبحُ يَكشف سترَ الله عنه"[1].

تَتزايد حدةُ عِناد سدوم لنبي الله لوط عليه السلام، هذه المرَّة يستهزئون بعذابِ الله، يتحدّونه أن يأتيهم به، يُشككون في مِصداقيته، ويتَّهمونه بالكذب، يقولون إنْ كان ما تَنهانا عنه يَستنزل عقابَ الله فائتِنا به إن كنت صادقًا! ليتَهم طلبوا آيةً أو دليلًا على صدقِ قوله وكَونه نبيًّا مرسَلًا من ربِّه،

(١) صحيح البخاري: ٦٠٦٩.

ولكنهم طلبوا التهلكةَ إن كان صادقًا، وكأنهم يقولونَ لن نقفَ عن أفعالنا المشينَة مادُمنا أحياء، سنتوقَّف فقط عند نزولِ العذاب القاتل، وهو أمرٌ يَستبعدون حدوثَه ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (العنكبوت: ٢٩).

لا يَنبغي أن نستهينَ بعذاب الله ولو على سَبيل المزاح، فقد جاءَ في الأثر أنَّ "البلاء موكَّلٌ بالمنطق"، وقيلَ أيضًا إنَّ "البلاء موكَّلٌ بالقول" أي بما يَنطقه الرجلُ أو يقوله، وهذه سدوم استدعَت واستعجَلت العذابَ فجاءها، وبهذا ينتهي الأملُ في الكفِّ عن الكبائر والموبقات.

* * *

الحفيدُ: جدّي، لماذا سمح اللهُ لسدوم أن يؤذوا نبيَّ الله لوطًا ويُهدّدوه؟ أليستِ الرسل جديرةً بالحماية الإلهية؟

الجدُّ: هذه هي الحريةُ التي أعطاها اللهُ لعباده لكي يَختبرهم، فمَن شاء فليُؤمِن ومَنْ شاء فَليَكفُر، فمَن أراد أن يؤمنَ ويتَّبع الرسولَ فهو مِن الراشدين، ومَن كفرَ بالأنبياء والرُّسل وشَتَمهم وحرقَ قرآنه فلا يَلومنَّ إلا نفسه، أما الرسلُ فهُم أكثرُ الناس ابتلاءً، ويُبتلى المرءُ على قَدر دينه، والمؤمن مأجورٌ على ذلك إن صبرَ واحتسب.

الحفيدُ: لماذا يَصعبُ على الإنسان التوبةُ والصلاح؟ أعرف بعضَ الناس يتمنّون تركَ المعاصي ولا يقدرون.

الجدُّ: المعصيةُ لها لذَّة، وتترك أثرًا مثل المخدرات في المخِّ والقلب، وكلما زادَ تكرارُ الذنب زادتْ درجةُ إدمانه وصعبَ عليه تركُه.

الحفيدُ: وما الحلُّ إذًا؟

الجدُّ: الحلُّ هو البعدُ عن المثيرات للغرائز المُحرَّمة، لذلك يأمرنا اللهُ أن لا نَقربَ الزّنا، مجرّد القرب محظورٌ، فاحذرِ النظرَ والسمع فإنَّهما أولى خطوات الشيطان لكبيرةِ الزنا، وإيّاك ومجلس يُشرَب فيه الخمر أو تُتَناول فيه المخدرات، حتى ولو كنتَ بمَعزل عن مُتعاطيها، ولا تجرِّب شيئًا حرَّمه الله، فأنتَ لا يمكن أن ترتبطَ بشيء لم تُجرِّبه، وإن وقعَ الشخص في الحرام فعَليه الاستعانةُ بالله وكثرةُ الذكر، وأن يبتعدَ عن صُحبة السّوء التي تُشاركه الذنوب، وأن يَلزم الرفقةَ الطَّيبة، وأن يتوبَ ويَستغفر كلما اقترفَ إثمًا.

الحفيدُ: اطمئنّ يا جدي؛ فكلُّ أصدقائي طيّبون.

***

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا

عندما استنفدت سدوم فُرصَها في التوبة وتحدَّت رسولَها لوطًا عليه السلام أن يُنزل عليهم العذاب، طلبَ نُصرةَ الله على هؤلاء المُفسدين.. ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ (العنكبوت: ٣٠)، فاستجابَ اللهُ دعاءه، وكان قومُ لوطٍ على مَوعد مع الدمار، كما دعا نبيَّه عليه السلام بالنَّجاة له ولأهله مِن فِسقهم ومِن عقوبتِهم، فاستجابَ الدعاءَ ولكنِ استثنى اللهُ منه زوجتَه، فلم يشفعْ لها دعاءُ نبيِّ الله، ذلك بأنَّ الله عدلٌ ويحاسب كلَّ مَخلوق على عمله وليس بقَرابته ونَسبه ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١﴾ (الشعراء: ١٧٠-١٧١).

المؤمنُ لديه سلاحٌ عظيم، أقوى من أيِّ تَرسانة حربيَّة، سلاح استخدمَه الأنبياء والصالحون؛ إنه الدعاءُ مَعونة السماء، علينا ألا نَستهين به. أكبرُ الهموم والابتلاءات تَقضي عليها ركعتان في جَوف الليل، الدعاءُ يصنعُ المُعجزات. سهامُ الليل لا تُخطئ الهدف، يرمي بها المظلومُ فتَفتِك بالظالم.

كان الهلاكُ يُعدُّ لسدوم وهُم في خَوضهم يلعبون، أرسل اللهُ ملائكته إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، جاءوه في هيئةِ ضيوفٍ أغراب لا يَعرفهم من قبْل، أقبَلوا عليه، فبسطَ لهم وأكرمَ وِفادتهم، لم يقدمْ لهم الماءَ واليسيرَ من الطعام؛ بل جاءَ بعجلٍ سمين، قدَّمه لهم بكلِّ ترحابٍ وسَماحة نَفس، استخفَى منهم حتى لا يَعرفوا أنه يتكلَّف الكثيرَ من أجل ضيافتهم، وفاجأهم بتلك الوَليمة الشهيَّة.. ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ

﴿٢٦﴾ (الذاريات: ٢٤- ٢٦)، هكذا هي النفوسُ الزكية؛ تَتعامل مع الله في كلِّ موقف، إنما أكرمَهم لله وليس لحاجةٍ يُريدها، فهُم أجانب وربَّما لا يراهم مرَّة أخرى، ولكنَّ إكرامَ الضيف سمةٌ من سمات المؤمن، وفي الحديث الشريف: "مَن كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ..."[1]

نتكلَّف كثيرًا عندما يأتينا زائرون نعرفُهم؛ فنعدُّ الولائمَ وما فيها ممّا لذَّ وطاب، وبخاصَّة إن كان الزائرُ ذا شأنٍ ومَنصب، لكن هل نُكرم مَن لا نعرف ومَن لا نرجو منه مصلحة؟ هل نَدعو الفقراء الجياع إلى موائدِنا؟ لذلك يُخبرنا رسولُ الله ﷺ: "شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الوَلِيمَةِ، يُمْنَعُهَا مَن يَأْتِيهَا" (وهُم الفقراء الجَوعى الذين يتشوَّقون إليها)، "وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَن يَأْبَاهَا..."[2] (وهُم الأغنياء الشَّبعى).

يُعطينا أبو الأنبياء درسًا في الكَرم؛ أنَّ الكريمَ هو مَن يُحسن لمن لا يَعرف ويَحتاج إلى الطعام، وأنَّ الجودَ يكون من أفضَل الطعام وليس من فَضل الطعام وبَواقيه، فقد أتى بعِجلٍ سَمين لضيوفه المُنكَرين.

لم يُقدِمْ أيٌّ من الضيوف على هذه الوَليمة الكريمة، وهو أمرٌ محيِّر، فهُم على سَفر ولا بُدَّ أنهم جوعى، ومَن ذا الذي يأبى أن يأكلَ ولو قليلًا من هذا الطَّعام الطيب! فاستحثَّهم على الأكل، لكنهم لم يأكلوا، فشعرَ إبراهيم عليه السلام بالخوف منهم، فَطَمأنوه وأعلنوا عن هويَّتهم؛ إنهم ملائكةٌ أرسلهم اللهُ إليه ليُبشِّروه بغلام ذي علم غزير.. ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ (الذاريات: ٢٧-٢٨)، فاندهشَت زوجته (سارة) وقالت عَجوزٌ عقيم، فكيف يأتي

(١) صحيح البخاري: ٦١٣٨.

(٢) صحيح مسلم: ١٤٣٢

الولدُ وأنا قد وصَلت لسنِّ اليأس عند النساء، وكيف يكون الحملُ وأنا في الأساس عاقرٌ لا ألِدُ.. ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (الذاريات: ٢٩)، وفوق ذلك زوجُها أمسى شيخًا عجوزًا.. ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ (هود: ٧٢)، هكذا أكرمَ اللهُ هذين الزوجين (إبراهيم وسارة)، كانا كريميْن مع الضيوف فجزاهُما اللهُ بكرمٍ أكبر وأعظمَ منه، قدَّمَا عِجلًا فأعطاهُما ولدًا عليمًا نبيًّا، فهل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان! فهل بعدَ ذلك نخاف الفقرَ ونَقتصد في فِعل الخير والعطاء!

حملتِ الملائكةُ البُشرى بولدٍ لأبي الأنبياء وزوجتِه سارة، ولكنها كانت تَحمل نبأ آخرَ أحزن إبراهيم عليه السلام، إنَّهم في طريقِهم إلى قوم لوطٍ المجرمين؛ سوف يُذيقون سدوم العذابَ والهلاك.. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الذاريات: ٣١- ٣٤).

بعدَما ذهب هولُ المفاجأة، راحَ إبراهيم عليه السلام صاحبُ الخُلُق الحليمِ يُجادل الملائكةَ في إهلاك قوم لوط، يطلب من الله إمْهالَهم لعلَّهم يتوبون، وذكرَ الملائكة أنَّ فيها نبيَّ الله لوطًا عليه السلام لعلَّ ذلك يُثنيهم عن تدميرها.. ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾(هود: ٧٤- ٧٥).

بعضُ الناس تريد تعليقَ المشانِق لكلِّ مُذنب، ليس في قلوبِهم رأفةٌ أو رحمة، لا يلتمسونَ الأعذارَ للمُخطئ، لم يتعلَّموا الحلمَ من إبراهيم عليه السلام، حينما جادلَ الملائكة في عذابِ سدوم رغم إجرامِهم،

وهكذا كان نبيُّنا ﷺ عندما رفضَ أن يُطبق ملكُ الجبال على مكذِّبي الطائف الأخشَبَين، عندما آذوه وقال: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابِهم مَن يعبدُ الله وحدَه لا يُشرك به شيئًا"[1]، فرفقًا بالمقصّرين!

تؤكدُ الملائكة لإبراهيم عليه السلام معرفتَهم أنَّ لوطًا عليه السلام بهذه القرية، وتُطمئنه أنه لن يُصيبه العذابُ هو والمؤمنين مِن أهله، فقد كتبَ لهم الله عز وجل النجاةَ من ذلك العذاب، إلا زوجة لوط سيُصيبها العذابُ مع سدوم..﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾(العنكبوت: ٣٢).

لم ينسَ إبراهيم عليه السلام- في ذروةِ فَرحتِه بالولد- أخاه في الإيمان والنبوَّة لوطًا عليه السلام، وهذا شأنُ المؤمن دائمًا يهتمُّ لأمر أخيه، ويَحمل همَّه ويتألمُ لجرحِه، يدعو له بظاهرِ الغيب، يساعده إن كان في مَقدوره، يواسيه إن كان في ضائقةٍ أو حزن. المؤمنُ لا يَنشغل بنفسِه عن إخوانه، فالمؤمنونَ كالجسدِ الواحد.

أخبرتِ الملائكةُ إبراهيم عليه السلام أنه قُضي الأمرُ وحُسم الموضوعُ وصَدر الحُكم، ولا جَدوى من جِداله في شأن إهلاك قوم لوط؛ فاللهُ أمرهم بتَدميرهم ولا رادَّ لأمره.. ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾(هود: ٧٦).

توجَّهتِ الملائكة صوبَ سدوم، وصلتْ إلى لوط عليه السلام،حلَّت ضيفًا ثقيلًا على نبيِّ الله، استشعرَ الحرجَ والخوف فورَ رؤيتهم؛ فهُم على هيئةِ شبابٍ ذكور في غايةِ الكمال والوَسامة، مثل هؤلاء الشبان صيد ثَمين لأهل سدوم، هو أعلمُ بقومه وبوَلَعهم الخَبيث، فلو عَلموا بوجودِهم

(١) صحيح البخاري: ٣٢٣١.

سيَطلبونهم للفاحشَة، هُم في ضيافتِه وحِماه، لا يمكن أن يُسلمَهم، ولكن أنَّى يواجِه هذه الكثرةَ وهو فرد! اغْتَمَّ لوط عليه السلام وتوقَّع حدوثَ المصائب.. ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ (هود: ٧٧).

لعلَّه أحلكُ يوم مرَّ بلوط عليه السلام، فبعدَ قليل سيأتي قومُه يطلبون الضيوف، لا بدَّ أنَّ الصدامَ سيحدث، والأزمة ستَقع، كيف يدفَعهم عن ضيوفه.. {هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ}. تضيقُ صدورنا، وتَعترينا الهموم، تفجَعنا المصائب، وتُثقلنا الديون، يحزنُنا المرض ونَجزع للفراق، تسودُّ الحياة في أعيننا، نَتَساءل هل مِن بَصيص أمل! أين الفَرج! وما ندري أنَّ فرجَ الله قريب، والصبح يَحمل البُشرى والخيرَ والانشراح والسرور، وأنَّ الغُمَّة إلى زوال، والدّين إلى قضاء، والمرض إلى شِفاء، والهَزيمة إلى انتصار، فنمْ قريرَ العين واستبشرْ خَيرًا؛ فإنَّ فرج الله قريب.

ضاقَ نبيُّ الله لوط عليه السلام ذَرعًا بضيوفه، لم يكنْ هاشًّا باشًّا باسمًا مُكرِمًا لأضيافِه كما فعل إبراهيم عليه السلام، ربما يظهر لوط- لغير العالمين بمَساوئ قومه- بمَظهرٍ غيرِ لائق؛ لذلك تريَّثْ قبل أن تَحكمَ على الناس، فمَن يدري لعلَّ الصديق الذي قابلَك بفُتور، أو القريب الذي لم يَحتفِ بك في بيته؛ يمرُّ بظروف لا تَعلمها ولا يستطيع البوحَ بها، فالتمسِ الأعذارَ لأخيك ولا تُسئ الظنَّ به.

بالفعل عرفَ رجالُ سدوم بوجود أضيافٍ عند لوط عليه السلام، فجاءوا مسرعين يهرولون، يقال إن زوجة لوط أعلمتهم بشأنهم، وكانوا قبلها يعملون السيئات؛ يمارسون الشذوذ كعادتهم، أرادوا الأضياف

ظنًا منهم أنهم غلمان، استبشروا خيرًا بقدومهم ولم يدروا أنهم رسل العذاب إليهم، اغترّوا بأشكالِهم الجميلة وحَسبوهم صيدًا ثمينًا أو لُقمةً سائغةً.. ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾(الحجر: ٦٧).

لقد استهان القومُ بلوطٍ عليه السلام وضيوفِه، شعروا أنهم ضعفاءُ لا حولَ لهم ولا قوَّة، فاستَعْرضوا عَضلاتهم وتَجبَّروا عليهم، هذا السيناريو نَراه يوميًّا في حياتنا؛ التَّنكيل بعاملٍ مِسكين لأتفَه سَبب، تَعنيفُ وتأنيبُ خادمةٍ لكَسرها كوبًا زجاجيًّا، التَّحرش بامرأةٍ لأنها تسير وحيدة ولا تَستطيع الدفاعَ عن نفسها، أما نَدري أنَّ هؤلاء ليسوا وَحيدين، وأنَّ لهم ربًّا قويًّا قادرًا على حمايتهم والفَتكِ بعَدوُّهم؟

للحَرام لذَّة؛ مجالسُ الغيبة والنَّميمة مُسلية، وشرابُ الخمر يُسكر شاربَه ويُنسيه همومَه، والزنا فيه متعةٌ كبيرة؛ ولكنَّها في حقيقة الأمر شهواتٌ تؤدّي إلى جهنَّم والبؤسِ والشقاء الدائم، لا تكنْ كقومِ لوطٍ أسرعوا إلى ضيوفِه يريدون المتعةَ وما يَدرون أنهم سَعَوا إلى حتفِهم وهَلاكهم والعذاب المُقيم.

حاولَ لوطٌ دفعَ راغبي المتعة الحرام والشُّذوذ، عرضَ عليهم الحلالَ أنَ يَنكحوا نساءَ القرية، فهذا أطهرُ لهم وأقوَم، أدركَ أنهم في ثورة الشَّهوة، فلم يأمرْهم بكَبتِها، بل بيَّن سبيلَ تَفريغها في الحلال، أوجدَ لهم البديلَ المقْبول، هذا هو المتنفَّس الصَّحيح للغَريزة الإنسانية، أراد أن يَصرفَهم عنِ الحرام ويُذيقَهم الطيب، لعلَّ نفوسَهم تألفه وتُعرض عن الخبائث، وهذا هو النهجُ الذي أرشدَنا إليه رسولنا ﷺ، حين يرى امرأةً لا تَجوز له ويرغبُ بها، فيَذهب إلى زوجته وينفِّس عن شهوتِه فيما أحلَّ الله "... فإذا رأى

أحدُكُمْ امرَأَةً فأعْجَبَتْهُ، فَلْيَأْتِ أَهَلَهُ، فإِنَّ الَّذِي مَعَها مِثْلَ الذي مَعَها"[1]

ليتَنا نوجِد البديلَ الشرعي لغرائزنا، إنَّ تَيسير سُبل الزواج للشباب يُساعد على العِصمة والعَفاف والطهارة، وكلَّما سهلَ الحلالُ اندثَرَ الحرام، أما أن نُطالب الشابَّ أن يَصبر على غريزته وهي في فَورتها لمدَّة تزيد عن خمس عشْرة سنة حتى يتزوَّج في سنِّ الثلاثين؛ فهو أمرٌ منافٍ للحكمةِ والطبيعة، فكلُّ الكائنات تَتَزاوج عند وصولها سنَّ البلوغ!

يخاطبُ لوطٌ عليه السلام قومه مُستنفرًا فيهم المروءةَ، فيسألهم ألّا يخذلوه في أضيافِه؛ فالضيفُ في حِمى مضيفِه، عليه إكرامُه وحمايتُه، وقومُه يريدون أن يَفجروا بهم، أليست هذه مَسبَّة في حقِّه وحقِّهم، فهل هذا حقُّ الضيف، رأينا كيف أكرمَ إبراهيمُ عليه السلام الضيوفَ عندما نَزلوا عندَه؛ ذبح لهم عجلًا وقدَّمه إليهم، لكنْ سدوم لا يعرفون حرمةً للضَّيف وليس في وجوهِهم حُمرة خَجل، خوَّفهم بالله وطالبَهم بتقواه، فكيف تَعتدون على حرمةِ نبيِّ الله وتؤذونَ ضيوفَه! ألا تخشونَ انتقامَه منكم، ألا يوجَد بينكم رجلٌ رشيد، رجل واحدٌ يدفع معه هؤلاء المجانين، رجلٌ يَنهاهم عنِ المنكر، رجلٌ يَنطق بالحقّ.. لكن لا مُجيب عن سؤاله.. ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾(هود: ٧٨).

أَليس منكم رجلٌ رشيد! أحيانًا يَخشى الفردُ الرشيد أن يتكلَّم، الكلُّ مُجمع على رأي، فهل يستطيعُ أن يواجهَهم، يعرف أنهم على خطأ، يعرف الصوابَ ولكنه لا يَنطقُ به، وما يدري أنه ربَّما يستطيع أن يغيِّر من مَوقفهم، فهو إن كان فردًا فمَعَه الحق، وربما يشجِّع آخرين لمناهضةِ

(١) صحيح الجامع: ١٩٣٩ .

الباطل، فكنِ الرجلَ الرشيد وابدأ بنفسِك، ولا يُضيرك إن لم يأخَذوا برأيك، فيَكفيك أن يراكَ اللهُ ﷻ في هذا المشهد المُشرِّف.

يردُّ قومُ لوط عليه بأنهم لا يرغبونَ في نكاحِ النساء، لا يرغبون في الطَّهر، هُم يريدون الضيوفَ الذكور، لم يصرِّحوا أبدًا بأنهم يريدون الشُّذوذ، وقالوا: {وإنك لَتعلَمُ ما نُريد}، هكذا هو الباطلُ دائمًا يُخزي صاحبَه ولا يَستطيع أن يَجهرَ به، وإن شاعَ وكَثر، فطرةُ الإنسان تغلبُ عليه فيَستحي من المعاصي، ولكنهم مع ذلك مصرّونَ على أن يَغتصبوا هؤلاء الضيوفَ الذين ظنّوهم ذكورًا، غلبتْ عليهم شقوتُهم، صاروا عبيدًا لشَهواتهم فلم يَقدروا على التحكُّم فيها، رفضوا الحلالَ وأصرّوا على مُخالفة شرع الله وفطرتَه..﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ (هود: ٧٩).

كان لوطٌ عليه السلام في وضعٍ حرجٍ للغاية، فالقومُ مثل الكلاب المسْعورة تريد نَهشَ لحمِ ضيوفه، هُم كثرة وهوَ وحيد، تمنَّى أن يكون له مَنعة، أن تكون معه صُحبة أو أهلٌ ليُدافعوا معه فهو الغريبُ بين سدوم، لا قبيلة يَنتمي إليها فتَنصرُه، ولا أصحاب يُساندوه وقتَ الضيق، ليتَه يأوي إلى ركنٍ شديد يَحتمي به ويَحمي به ضيوفَه. كان لوطٌ عليه السلام يبحث في الأسبابِ المادية، يريد جهادَ هؤلاء المعتَدين، لكنه لم يكن يَملك أيًّا من وسائل الدفاع أو المقاومَة؛ فهذه معركةٌ بكلِّ مَقاييس البَشر خاسرة.. ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ (هود: ٨٠).

ضاقَت فلمّا استحكَمَت حلقاتُها فُرِجت، هنا تتدخَّل السماء، فاللهُ هو مَن أرسله وهو ناصرُه، وكفى بالله نَصيرًا. تكلمَ الضيوفُ وأفصحوا

عـن هويَّتهـم الحقيقيـة.. ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾(هـود: ٨١). نحـن مَـددُ الله يـا لـوط، لا نَحتـاج لحمايتِـك، جئنـا لنُصرتـك، هـوِّن عليـك، لـن يسـمحَ ربُّـك بفَضيحَتـك، لـن يَنالـوا منـكَ أو مِـن أضْيافـك، أنـت تـأوي إلى الركـنِ الشـديد، أنـت في حفـظِ الله ورعايتـه؛ فـلا مجـالَ للخـوف أو الحـزن، لقـد حانـتْ سـاعةُ النجـاة لـك ولأهـلِ بيتـك المؤمنـين مـن هـذه القريـة الظـالمِ أهلُهـا، إلا زوجتَـك الظالمـة، فسـوف يُصيبهـا الهـلاكُ مـع قومهـا الظالمـين.. ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (العنكبـوت: ٣٣).

يمحِّـص اللهُ عبـادَه ويَختبرهـم، يَضعُهـم في المواقـف العَصيبـة، حتـى يُميـز المؤمنـين والصابريـن مـن النـاس، وحتـى يُظهـر ضعـافَ النُّفـوس والظالمـين، كان يمكـن للرُّسـل أن تبلِّـغ لوطًـا ﷺ في أولِ الأمـر، وكان يمكـن أن يَختفـوا ولا يدركُهـم القـوم، لكـن هـذه الفتنـة قسـمتِ النـاسَ لمؤمـن وكافـر، أظهـرت زوجـةَ لـوط عـلى حقيقتِهـا، فهـي وإن كانـت مـن أهـل لـوط، إلا إنَّهـا غـيرُ مؤمنـة ومُتَماهيـة مـع القـوم، حتـى قيـل إنهـا هـي مَـن دلَّتهـم عـلى الضيـوف، فكـنْ يَقظًـا في مواقـف حياتِـك واعلـمْ أنـك في اختبـار، واحـرصْ عـلى أن تُصنَّـف مـن المؤمنـين فيـه بفِعلـك وقولـك.

﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾، يحتـاج المؤمـنُ لقـوة معـه، إخـوة يَنصحونـه باتِّبـاع الحـق، يشـجِّعونه عـلى الطاعـات، ينصرونَـه في مِحنتـه، ويواسـونَه في أحزانـه. احـرصْ عـلى الصحبـة الطيبـة، وكـنِ الصديـقَ الـوفيَّ الـذي يمـدُّ يـدَ العَـون لـكلِّ محتـاج، كـنْ ركنًـا يـأوي إليـه الضَّعيـف.

أعمى اللهُ أبصارَ قوم لوطٍ عنه وعن ضيوفِه، وأخبرتِ الملائكةُ لوطًا عليه السلام بأن يَخرج هو وأهله- باستثناء زوجته- سرًّا ليلًا من هذه القرية؛ لأنَّ العذاب سيَنزل على القوم الظالمين. طلبتِ الملائكةُ ألا يلتفتَ أحدٌ من المؤمنين ليَرى ما يحدث؛ لأنه عذابٌ لا تُحتَمَل رؤيتُه، وأعلمتْه الرسلُ أنَّ الهلاك سيَقع بهم صباحًا؛ لذا عليهم أن يَصبروا ويتخفَّوا لليلةٍ أخرى، وفي الصبح يأتي الفَرج، تتغير الأحوال، تَنصلح الحياة، يُخزي الله الكافرين الظالمين ويَنتصرُ المؤمنون ويَفرحوا، أليسَ الصبحُ بقَريب.. ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ (هود: ٨١).

أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب؟ بلى إنَّه قريب، لماذا كان عليهم الانتظارُ طوالَ الليل؟ إنه قدرُ الله يأتي في الموعِد، علينا أن نعرفَ أنَّ علوَّ الباطل هو لفترةِ الليل فقط، ربما يَطول ليلُ الظلم، لكن لا يجبُ أن نشكَّ في قدوم فجر العَدل والنَّصر والفَرج، إنه آتٍ لا مَحالة، وعدُه حق، ووعدُه نُصرة المؤمنين وخذلانُ الظالمين، لكنَّ الشروق يأتي بعد الثباتِ على الحق ومُجاهدة الباطل، بعد الأخْذ بجَميع الأسباب المتاحَة والمُمْكنة، كما فعلَ لوطٌ عليه السلام فقد قاومَ الطغاةَ بكلِّ ما أوتي من قوةٍ وهو فَرد، ثبتَ ولم يَنهزم، لم يرفعِ الرايةَ البيضاء، حينها يأتي الصبحُ بجَميع الأمنيات السعيدة.

خرجَ المؤمنون ليلًا. كم كان عددُهم؟ قليل؛ أهلُ بيت واحدٍ فقط، بل ولم يكنْ جميعُ أهل البيت؛ فقد كانت امرأةُ لوطٍ من الكافرين، فأصابَها العذاب.. ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (الذاريات: ٣٥- ٣٦).

ليس الحقُّ دائمًا مع الغالبيَّة، كثيرًا ما يكون مع القلَّة، فلا تَنخدع بالكثرةِ فإنَّ الله قال: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ (الأنعام: ١١٦).

غادرتِ الثُّلة المؤمنة بؤرةَ الشَّر "سدوم"، عندما تُحاط بالسيّئين وتَيأس من إصلاحِهم؛ غادرْهم إلى مكانٍ أفضل، غيِّر محلَّ إقامتك أو عَملك إن كانتِ الصحبة فيه تجرُّك إلى أسفل، هذه هجرةٌ لله، اهجرِ الأشرار وابحثْ عنِ الأخيار، كنْ مع الصادقين في النادي أو الجامعَة أو الحي، تحرَّك فأنتَ لست شجرةً لها جذور تَغوص في الأرض وتَمنعها الحركة، لقد هاجرَ نبيُّنا ﷺ من مكة، وهجرَ موسى عليه السلام مصرَ مرَّتين ، وفَعلها من قبْلهما أبو الأنبياء إبراهيمُ عليه السلام فخرجَ من العراق. اهربْ من أرض المعاصي قبل أن ينزلَ عليها غضبُ الله وعذابه.

أشرقتِ الشمسُ على سدوم وليس بينَهم مؤمن، أليس هذا ما تمنّوه، أن يتخلَّصوا من لوطٍ وأهله لأنهم يتطهَّرون، وما كانوا يدْرون أنه كان الأمانَ لهم من عذاب الله، كثيرًا ما يَدفع اللهُ عنّا البلاءَ ببركة مسكين أو عجوزٍ بيننا تَشمئزُّ منه أعينُنا، ونَحتقره ونتمنَّى أن يفارقنا.

حان وقتُ الحساب، لقد أمهلَهم اللهُ زمنًا وأرسلَ إليهم رسولَه لعلهم يَمتنعون عنِ الفواحش، لكنهم تَمادَوا في الفِسق حتى وصلوا إلى دارِ نبيِّهم يريدون اقتحامَها وتَدنيسَها، فكان ذلك إيذانًا بفَنائهم. جاء الصبحُ ومعه الفناءُ والعذابُ الشديد، وكان الجزاءُ من جِنس العمل، كانوا لا يَستترون حين يأتون الفواحشَ فعاقبَهم اللهُ في وضَح النهار بلا سترٍ وعَلنًا. تعدَّدت جرائمهم بين الشذوذ وقَطع السَّبيل وفِعل المنكرات بمَجالسهم، فتنوَّعت

صورُ العذاب، شذّوا فشذَّ المطرُ ونزل حجارةً من سجّيل، قلَبوا الفطرةَ فقُلِبت قريتُهم وجُعلَ عاليها سافلها.

أرسل اللهُ على قوم لوطٍ صيحةً مُهلكة، أفزعتْهم وخلعَت قلوبهم، كما كانوا يصيحون نشوةً وتَرقص قلوبُهم فَرحًا في نواديهم القَذرة، وانقلبتْ قريتُهم رأسًا على عَقب، اقتلعَها جبريل عليه السلام من الأرض ورفعَها إلى السماء ثمَّ هوَى بها في السماء ثمَّ قُلبَت[1]، يا لَه من انتقام قاسٍ لمن بدَّل وغيرَّ وفسَق عن أمر ربه.. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ (الحجر: ٧٣- ٧٤)، لم يتوقفِ العذابُ عند الصَّيحة وانقلابِ القرية بمَن فيها، بل زادَهم اللهُ بحجارة تسقطُ من السماء تضربهم فتَفتكُ بهم، ألم يَسْتعذبوا من قَبل صيحاتِ الغِلمان حين كانوا يَغتصبونَهم ويَفْجروا بهم! والآن يتجرَّعونَ العذابَ ألوانًا كما أذاقوه غيرَهم.

لقد ناسبَت هذه العذاباتُ شخصياتِهم الساديةَ التي تَستمتع بإذلالِ وعذاب الآخرين، جعلها آيةً وعبرةً لكلِّ مَن تسوِّل له نفسُه هذه الأفعالَ المُشينة، ولكن هل ارْتَدعتِ البشرية، هل وَعَت الدرس، هل اعتبرَت من قومِ لوط؟ للأسف تَتكرر نفسُ الجرائم وتَنتكس الفطرةُ مرَّة أخرى، عذْنا للوراء ونَحسب أن نتقدَّم! لقد كان الشذوذُ عاهةً وصَمَت جبينَ البشرية في الماضي السحيق، واليوم يَعتبرونه سمةَ التَّحضر، ومَن يُنكره يصبح- في عرفهم- رجعيًّا! قصةُ سدوم درسٌ وعبرةٌ للمتوسِّمين المؤمنين المتدبرين آياتِه وقصصَه والمتمسكين بأحكامه، الذين ينكرون الشذوذَ ويَنهون عنه؛ هؤلاء هم الفئةُ الناجية، أما الراضونَ عن الفسوق، والمرتكبون

(١) تفسير الطبري لآية ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ النجم.

للكبائـر؛ فمَوعدُهـم الصبـح، أليـس الصبـحُ بقريـب! سـيَلقون الجـزاء مـن جنـس مـا ارتكبـوه، وسـيَندمون أشـدَّ النـدم عـلى لحظـاتٍ قَضوهـا متلذِّذيـن بالفواحـش، فضيَّعـوا بذلـك عـلى أنفسـهم نعيـمًا خالـدًا؛ جنـاتٍ تجـري مـن تحتهـا الأنهـار، فيهـا مـا لا عـينٌ رأت ولا أذنٌ سـمعت ولا خطـرَ عـلى قلـب بـشر، ضيَّعـوا لـذةَ النظـر إلى الله، وأوْرَدوا أنفسـهم عذابًـا لا ينتهـي.. ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الحجـر: ٧٤-٧٧).

* * *

بين يَدي القصة:

تناولتِ الآياتُ قصةَ قوم لوط الذين انتشرَ فيهم اللواط؛ وهو أحدُ أنواع الشذوذ الجنسي، وهو موضوعٌ شديدُ الحرج، لكنَّ القرآن- كعادته- حكى القصةَ دون أن يَجرح حياءَ القارئ، فالحياءُ سمةٌ أساسية في الدين، وشعبةٌ من شُعب الإيمان، وليتَ الرواة يراعونَ ذلك في قصصِهم، لا ابتذال ولا ألفاظ جارحَة ولا محلّ لإثارةِ الشهوات، رغم أنَّ القضية الأساسية التي يتمّ تَناولها جنسيةً بَحتة.

وضَّحتْ أحداثُ القصة صفاتِ أهل سدوم؛ هم شَهوانيون، جمحتْ بهم غرائزهم لأبعَد حدّ، شاع فيهم الشذوذُ وصار عُرفًا عندهم، وزادَ الطين بلَّة أنهم يمارسونَ الفواحشَ عَلانية في نَواديهم، ويُكرهونَ ضحاياهم على الاسْتسلام والخُضوع لهم، وهو يدلُّ على قسوةٍ كبيرة في قلوبهم، هي ساديةٌ أن تستلذَّ بعذابات الآخر، هم في حالةِ إدمان لسلوكٍ مُنحرف، جعلَهم في حالة إثارةٍ دائمة، يريدون ممارستَه في كلِّ وقتٍ ومكان، اسودَّت قلوبهم من أثرِ هذه المعاصي فلا مَوضع يمكن أن يَنفُذ منه نورُ الإيمان. لم يكونوا يجادلون نبيَّهم، بل كان ردُّهم غايةً في الإيجاز؛ عبَّر عنه القرآن: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ فمرَّة هدَّدوا لوطًا عليه السلام بالخروج من القرية، والأخرى طالَبوه بالعذاب إن كان صادقًا، وهو ما يدلُّ على الانغلاق التام وَرَفض الحوار، وذلك لأنَّهم يُدركون أن أفعالَهم خاطئةٌ ولا يمكن تبريرُها، ومع ذلك فهُم مُصرّون عليها.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (النمل): ٥٦..، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (العنكبوت: ٢٩).

وهـذه هـي سـماتُ الشـخصية القاسـية، لا تحبِّـذ الحـوار، وتَميل إلى اسـتخدام العُنـف والقـوة، كـما أنهـا لا تتعاطَـف مـع الآخـر، وهو مـا بـرزَ عندمـا ترجَّاهم لـوطٌ عليه السلام ألّا يَعتـدوا عـلى ضيوفِـه ويُسـببوا بذلـك فضيحـةً كـبرى، فرَفَضـوا طلبـه، لا يراعـون حرمـةً للضيـف أو لعابـرِ السـبيل.

العقـلُ الجَمعـي لسـدوم تقبَّـل الفسـوق، ليـس بينهـم رجـلٌ رشـيد ينهاهُـم عنـه؛ لذلـك أصبـحَ الفسـقُ سـلوكًا جماعيًّـا مَقبـولًا في العلـن، أصبـح الشـذوذُ جـزءًا مـن ثقافتهـم التـي لا يَخجلـون منهـا.

أمـا نبـيُّ الله لـوط عليه السلام فهـو الشـخصيةُ السـويَّة المسـتقيمة المسـتَنكرة لهـذه الأفعـال، وكأنـه في حالـة صدمـةٍ ممّـا يـراه ويَسـمعه في هـذا المجتمـع الغَريـب عنـه، حيـث أُرسِـل إليهـم ولم يكـنْ مـن القـوم، وقـد كان طبيبًـا لهـم يوصيهـم بالـدَّواء الشـافي؛ وهـو الـزواجُ بالنسـاء والبعـدُ عـن الشـذوذ.

وقـد تجـلَّى مـن القصـة اسـمُ الله "السـميع" الـذي سـمع دعـاءَ لـوط بـأن ينجّيـه وأهلَـه مـن سـدوم وفسـقها، فأرسـل لـه الملائكـةَ لتُخـرج المؤمنـون وتُهلـك الفاسـقين، وفي ذلـك يقـول الأصفهـاني: "والله عزّ وجلّ السَّـميع لدُعـاءِ الخَلْـق وألفاظهـم، عنـد تفرُّقهـم واجتماعِهـم، مـع اختـلافِ ألسـنتِهم ولُغاتهـم، يعْلـم مـا في قلـبِ القائـل قبـلَ أنْ يقـولَ، ويَعجـزُ القائـل عـن التَّعبـير عـنْ مُـراده؛ فيَعْلـم الله فيُعْطيـه الـذي في قَلْبـه، والمَخْلـوق يـزول عنـه السَّـمع بالمَـوْت، واللهُ تعـالى لم يَـزَلْ ولا يَـزال، يُفنـي الخلـق ويَرِثهـم"[1].

كـما تجـلَّى اسـمُه "النصـير"، فقـد صـدقَ وعـدَه ونـصرَ عبـدَه لوطًـا عليه السلام وهـزمَ "سـدوم" وأبادَهـا عـن بَكـرة أبيهـا، وهـو فـردٌ ليـس لـه قبيلـةٌ أو إخـوة

(١) الحجَّة في بيان المحجَّة، لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني، ج:١، ص: ١٢٧.

أو صُحبة تَنصره، وقال الحليمي: "والنَّصير وهو الموثوقُ منه؛ بأنْ لا يُسلم وليَّه؛ ولا يَخْذله"[1]. وهو ﷻ "الملك القدوس" المنزَّه في ذاته وصفاته وأفعاله من العيوب والنقائص التي تعتري ملوكَ الدنيا؛ كالهوى والظُّلم والمحاباة وغيرها من الآفات[2]، لم يحُابِ زوجةَ لوط ولم يُنجِها مع باقي آل لوط، جازاها الهلاكَ والعذابَ بعملها.

❊ ❊ ❊

(١) الأسماء والصفات، للبيهقي، ج:١، ص ١٧٩، وقد عزاه للحليمي.

(٢) الأسماء الله الحسنى تصنيفًا ومعنى، ماجد بن عبد الله آل عبد الجبار، ص ١٤٦.

وَشَدَدْنَا مُلْكَه

الجدُّ: كيف حالُ استعدادات بطلنا للمُباراة القادمة؟

الحفيدُ: أظنُّ أنه ليس لدينا فُرصة في الفوز، فقد أوقَعَتنا القرعةُ مقابلَ فريق قويٍّ جدًّا، يَفوقنا في السرعة والمهارات.

الجدُّ: جميل أن تَحترم خصمَك وتتعرَّف على نقاطِ قوته وضَعفه، لكن أن يُصيبك الإحباطُ قبل أن تبدأ فهذا في حدِّ ذاته كفيلٌ بهزيمتِكم.

الحفيدُ: لقد تُوِّجَ هذا الفريقُ العام الماضي ببطولةِ المسابقة، لم يعرفِ الهزيمة قط.

الجدُّ: كلامٌ جيد، ولكن هل يَتجاوزُكم في العدد؟

الحفيدُ: لا يا جدّي، فعددُ اللاعبين واحدٌ بين الفريقين، فهذه اشتراطات، لا يمكن لفريق أن يتعدّاها.

الجدُّ: إذًا، أنتم مُتكافئون، هُم رجال وأنتُم رجال. اعلمْ يا بُني أنَّ الهزيمة تبدأ من الداخل، فإذا أيقنتم أنكم ضُعفاء وهُم أقوياء فسوف يَسحقونكم، أما إذا كنتُم واثقين في قدراتكم وتدرَّبتم جيدًا فسوف تَنتصرون بإذن الله، مع العلم أنَّ لديكم ميزةً إضافية عنهم.

الحفيدُ: نحن! وما هي؟

الجدُّ: هم يَعتقدون أنهم الفريقُ الأفضل؛ لذلك سوف يَتكاسلون وربَّما يتسلَّل إلى نفوسهم الغرورُ والاستهتار بِكم، مما سيَدفعهم إلى التَّخفيف في التدريب والتَّخطيط، لكنَّكم على العكس ستكونون في أعلى درجاتِ الاستعداد والتركيز، وبهذا تَغلبون.

الحفيـدُ مُتحمِّسًـا: أنـتَ يـا جـدّي أفضـلُ مـدرب تنميـةٍ بشريـة! هـل يمكـن أن أجمـعَ لاعبـي الفريـق لتحمِّسَـهم كـما فعلـتَ معـي؟ هـل يمكـن أن تحكـي لنـا قصـة كيـف انتـصرَ فيهـا الطـرفُ الأضعـف عـلى الأقـوى؟

الجدُّ: على الرَّحب والسّعة يا بطل.

***

كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً

يأخذُنا القصصُ القرآني في سياحةٍ لأماكن لم نَرها وأزمنةٍ لم نَعشها، يصور لنا الأحداثَ والمواقف ببراعة لا مثيلَ لها فنُعايش القصة كما لو كنّا عاصَرناها، وهذه المرةُ نزور الأرضَ المقدسة (بيت المقدس)، حيث خرجَ بنو إسرائيل مع نبيّا الله موسى وهارون عليهما السلام مِن بطش فرعون بمصر، وأمرَهم اللهُ أن يدخلوا الأرضَ المقدسة لكنهم جَبنوا أن يَدخلوها لأنَّ فيها قومًا جبّارين أقوياء، وقالوا لموسى عليه السلام اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا الجبابرة، فإذا انتصرتَ عليهم فسوف نَدخل معك الأرضَ المقدسة. كانوا يرغبون في نصرٍ سهلٍ بلا جهادٍ ولا عناءٍ كما حدثَ مع فرعون وجنده حينما أغرقَهم الله بضربةٍ بعصا من موسى عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (المائدة: ٢١-٢٢).

لقد أساء القومُ فهمَ الإيمان بالله، فعلى المؤمن أن يتعبَ ويكدَّ ويَجتهد ليصلَ لغَرضه، فالسماءُ لا تُمطر ذهبًا للمصلّين الصائمين، ولن نَنتصر على الأعداء بقراءةِ القرآن وترديدِ الأذكار، سننُ الله تقتضي العملَ والأخذَ بالأسباب مع الدعاء الصادقِ والعبادة.

عاقبَ الله بني إسرائيل بالتِّيهِ في الصحراء لمدَّة أربعين سنة وذلك لعِصيانهم أمرَ ربهم وقلَّة إيمانهم، أربعون سنةً يمشون في دائرةٍ مُفرغة، في المتاهَة، بلا هدف يصلونه.. ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (المائدة: ٢٦).

أربعون سنةً تائهون! حينما بَعدوا عن صراطِ الله فَقدوا البَوْصلة، كانوا يَدورون في دائرةٍ مُفرَغة، كثورٍ في ساقيةٍ يسعى ويتحرَّك ويتعَب ولكن لا يَبرح مكانَه، لا تطوُّر ولا رقيٌّ حقيقي إلا بطاعة ربنا.

مرَّت السنون، وكانت فترةُ الأربعين سنة كافيةً لتَغيير هذا الجيل الرِّعديد الذي عاش في ذلٍّ ومَهانة في ظلِّ حُكم فرعون، "إنَّ الشعوب التي تَنشأ في مَهد الاستبداد، وتُسَاس بالظلم والاضطهاد؛ تَفسد أخلاقها، وتذلُّ نفوسها، ويذهب بأسُها، وتُضرَب عليها الذلةُ والمسكنة، وتألَف الخُضوع، وتأنَس بالمهانة والخُنوع، وإذا طالَ عليها أمدُ الظلم تَصير هذه الأخلاق موروثةً ومُكتسبة، حتّى تكون كالغرائزِ الفطريَّة، والطبائع الخلقية، إذا أخرجَت صاحبها من بيئتِها، وأنقذَته من ذلِّها ألفَيتَه يَنزَع بطبعِه إليها، ويتفلَّت منك ليرجعَ إليها، وهذا شأنُ البشر في كلِّ ما يَألفونه ويجرون عليه من خيرٍ وَشَر، وإيمان وكفر"[1].

مضتِ الأربعون سنة وخرج رجالٌ عاشوا في الصحراء أحرارًا أعزّاء تربَّوا على يدي موسى وهارون عليهما السلام، وشتان بين مَن نشأ في ظلمِ فرعون ومَن نشأ في عَدل موسى عليه السلام، فقادَهم نبيُّ الله يوشع بن نون عليه السلام إلى الأرض المقدَّسة فهَزموا عدوَّهم ودَخلوا الأرضَ المقدسة وعاشوا بها زمنًا في رخاءٍ وسلام.

وكأنَّ الأرض المقدسة مَوعودةٌ بألّا يدخلها غيرُ المؤمنون الصادقون الشجعان، أما الخائرون المتفرِّقون فإنَّ موعدَهم التّيه، حتى يُخرجَ من أصلابهم قومًا يفضِّلون اللهَ ورسوله والجهادَ في سبيله عن آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وأزواجهم وأموالهم وتجارتهم ومساكنهم.

(١) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، بتصرف.

ماتَ يوشع بن نون عليه السلام وتواترَ العديدُ من الأنبياء على بني إسرائيل من بَعده، ولا يَخفى علينا أنَّ كثرةَ الأطباء تدلُّ على كثرةِ العِلل وأمراضِ القلوب[1]. لم تكنِ الأجيال التي نشأتْ في الأرض المقدسة كالجيل الذي ولِدَ في التّيه، ذلك الجيل تعلمَ الصبر والمثابرةَ والجَلَد والخشونة من الصحراء، فعرفَ طريقَ النصر مع يوشع بن نون. أما الأجيالُ المتأخرة التي ولِدَت في رفاهيةِ الأرض المقدسة فانشَغَلت بالترفِ والتنعُّم عن دينهم وآخرتهم؛ لم يَلتزموا بإقامةِ شرع الله وكثرتْ خطاياهُم، وتَركوا الجهاد، فضعفوا واسْتكانوا وظهرَ عليهم عدوُّهم- العمالقة أو الجبابرة-، فهزموا بني إسرائيل شرَّ هزيمة وسَبَوا أبناءهم واغتَصَبوا ديارهم، وأخَذوا منهم التابوتَ الذي توارَثوه جيلًا بعد جيل، وكان فيه بقيةُ الألواح التي فيها التوراة.

استولى حبُّ الدنيا على قلوبِ بني إسرائيل وصار التنافسُ على مَتاعها الزائل (المال والمنصب والجاه) هو الهدفَ المُحفِّز لهم، فانزوى الإيمانُ وضَعفت شوكتُهم، وتحوَّل حالهم من العزِّ والمجدِ للمَهانة والذُّل. وكأنها مُعادلة كوْنية أو سنَّة ربّانية، كلما قلَّ سجودُنا لله زادَ خضوعُنا لغيره، كفرتْ بنو إسرائيل بنعمةِ الله، فألبَسَهم لباسَ الخوف والمهانة، حتى ضاعَ منهم التابوتُ الذي احتفظوا به أزمانًا، وفيه آثارُ من نبيِّي الله موسى وهارون عليهما السلام، فكان لهم سكينةً وفخرًا، وكانوا يتبرَّكون به ويَحملونه في معاركهم فينتصرون بإذنِ الله.

أفاقَ القومُ على وَقع النكبة، وقد كان شُرفاؤهم وصفوةُ مجتمعهم (الملأ) على قدرٍ من المسئولية والحِكمة، فتلمَّسوا مشارفَ طريق النَّصر

(١) مقولة منسوبة للشيخ: محمد متولي الشعراوي.

وأسبابه، عادوا إلى الله ورسوله، سألوا نبيَّهم شمعون[1] عليه السلام أن يجعلَ فيهم ملكًا ليتوحَّدوا خلفَه ويُقاتلوا عدوَّهم، عَلموا ألا فوزَ إلا بقتال، ولا جهادَ إلا بقيادةٍ راشدة؛ تَحشد الجيوشَ وتؤجِّج حماسَهم وتضع الخططَ وتتقدَّم الجند.

لعبتْ فئةُ الصفوة (الملأ) دورًا بارزًا في قيادةِ بني إسرائيل، هؤلاء الرموز هُم مَن يوجِّهون البَوْصلة، إن مَشوا على الصراط المستقيم وتمسَّكوا بمكارم الأخلاق صاروا قدوةً للشباب، يتنافسون في تَقليدهم واتباعهم، وإن مالوا إلى الترفِ تَبعَهم البقيةُ فضاعوا وأضاعوا قومَهم، ولهذا وجبَ علينا أن ندقِّق في اختيار القدوات والمُثل العليا لنا ولأولادِنا، فإن كان حلمُ كلِّ شابٍّ أن يصبح فنانًا أو لاعبَ كرة قدم؛ فلا تنتظر صحوةً ولا نهضة لأمَّتنا، وصدقَ الشاعر حين قال:

إذا كان ربُّ البيتِ بالدفِّ ضاربًا ... فشِيمةُ أهل البيتِ كلُّهم الرَّقص

ردَّ شمعون عليه السلام بأنه يخافُ أن يَجبنوا عن الحربِ ويتولَّوا عن القتال.. ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾، وذلك لعلمِه بضَعف إيمانهم وقلَّة صَبرهم على الجهاد، ولكنهم أكَّدوا أنهم عازمونَ على الجهاد بسبب خَسارتهم ديارهم وأبناءهم، وكان الأوْلى أن يقدِّموا أبناءهم على الديار، ولكنْ حبُّهم للمال والمتاع متأصِّل في القلوب.

ليسَت بالهتافات أو الشعارات تتحرَّر البلادُ وتُستردُّ الكرامة والأرضُ والممتلكات؛ لذلك كان على شمعون عليه السلام أن يتأكَّد من صدق توجُّه شعبه قبل أن يقود حفنةً من المذَبذبين إلى هزيمة نَكراء وفشلٍ ذَريع، فالمعارك تتطلَّب تحضيرًا وإعدادًا وتخطيطًا وتدريبًا جيدًا، وهو ما يتطلَّب صبرًا

(١) قيل إنه: نبي الله شمعون أو شمويل أو شمؤل عليه السلام، وقيل غير ذلك، تفسير الطبري، بتصرف.

وجهودًا وتضحيات غالية في سبيل ذلك.. ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠)، فحينما تَبدأ المعركة مع الجبابرة وتلتَقي السيوف ويَحمى الوطيس[1]، وتَتطاير أشلاءُ الجرحى وتَتهاوى الجثث، حينها فقط سيثبُت المؤمنون الصادقون الذين أعدّوا ما استطاعوا من قوَّة، وسَيَفر ضعافُ الإيمان مَذعورين تاركين مواقعَهم لعدوّهم، رافعينَ الرايات البيضاء بعدما رفعوا شعاراتِ الجهاد من قبْل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ (البقرة: ٢٤٦).

أخبرَهم نبيُّهم أنَّ الله بعث طالوتَ ملكًا عليهم ليوحِّدهم ويقودَهم للنصر على عدوّهم، فإذا بهم يعترضون كعادَتهم، وذلك لأنَّ طالوت ليس من الأغنياء. وما كان لهم أن يَعترضوا على رسول الله؛ فهو بيَّن لهم أنه اختيارٌ إلهي، وهو ما يدلُّ على ضَعف الإيمان وسوءِ الأدب مع الله وأنبيائه، وهي عادةٌ متأصِّلة في بني إسرائيل.

إنَّ اعتراضَهم على فَقر طالوت يدلُّ على أنهم ماديّون؛ المال هو مقياسُ الرجال، فالغنيُّ فيهم ذو هيبةٍ وشأن وهو أجدرُ بالريادة والملك، أما العلمُ والأخلاق فلم يُعيروها اهتمامًا.

أوضحَ نبيُّهم أنَّ الله هو مَن اختاره وميَّزه بزيادةٍ في العلم والجسم، فهذه المقوماتُ مهمَّة للانتصار على عدوهم (العمالقة): ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ

(١) يحمى الوطيس: تشتدُّ المعركة.

إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ (البقرة: ٢٤٧).

وقعَ القوم فريسةً للمظاهر واعترَضوا على طالوت لفَقره، حَسبوا أنَّ الغني أكثرُ كفاءة وعلمًا، فلا بُدَّ أنه أوتي المالَ بذكائه وقدرتِه الفائقة على إدارةِ أشغاله، ونَسوا أن المال رزقٌ يَهبه اللهُ لمن يشاء، وليس مقياسًا للمهارات أو الحكمة، فرُبَّ فقير مُعدَم يوازي في حكمتِه ألفَ ثريّ، ربما عنده حلٌّ لمشاكلنا المُعقدة، ربما فيه سماتُ القائد الذي نَبحث عنه، ولذلك يصحِّح لنا الحديثُ الشريف تلك المفاهيمَ والانطباعات الخاطئة: "مرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ، فقال لرجلٍ عنده جالس: ما رأيُك في هذا؟ فقال: رجلٌ من أشرافِ الناس، هذا والله حَرِيٌّ إن خَطَبَ أن يُنْكَحَ، وإن شَفَعَ أن يُشَفَّعَ، قال: فسكتَ رسولُ الله ﷺ ثمَّ مرَّ رجل آخر، فقال له رسولُ الله ﷺ: ما رأيُك في هذا؟ فقال: يا رسولَ الله، هذا رجلٌ من فقراء المسلمين، هذا حَرِيٌّ إن خَطَبَ أن لا يُنْكَحَ، وإن شَفَعَ أن لا يُشَفَّعَ، وإن قال أن لا يُسْمع لقولِه، فقال رسولُ الله ﷺ: هذا خَيْرٌ مِن ملء الأرض مثل هذا"(١).

وليَزيدهم شمعون عليه السلام ثقةً في اختيار الله لطالوت أعْلَمهم بأنه سيأتيهم بآيةٍ من الله ليَطمئنوا بها؛ فقال لهم إنَّ التابوتَ الذي فيه التوراةُ وبقيةٌ من آثار موسى وهارون عليهما السلام الذي أُخِذ منكم، سيَعود إليهم تَحمله الملائكة، فهذا ما قد يُقنع بني إسرائيل؛ أن يَروا بأعينهم ويَلمسوا بأيديهم آياتِ الله، فهُم ماديّون بطبعهم.. ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن

(١) صحيح البخاري: ٦٤٤٧.

يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ (البقرة: ٢٤٨).

أن تُسلِّم لأمرِ الله بمجرَّد سَماعه وتقول سَمعنا وأطَعنا، هذا هو عينُ الإيمان، أما أن يَقتنع القومُ بعد رؤية التّابوت تَحمله الملائكةُ إليهم؛ فهذا ليس يقينًا، فآيةُ المؤمن التصديقُ بكلِّ الغَيبيات التي أخبرنا بها الله.

يتولَّى طالوت زمامَ الأمور باقتدار، ويبدأ في التَّجهيز للمعركة الكبرى؛ معركة استرداد الكرامة، لكن الرجال الذين اعْتادوا القهرَ والاستسلام لا يمكن الاعتمادُ عليهم، هؤلاء يَشعرون بالدُّونية والضَّعف في أنفسهم، هم مُنهزمون قبلَ أن تبدأ الحرب؛ غيابُهم أنفعُ من وجودهم.

أدركَ طالوت بحكمةِ القائد المستنير الواعي الحكيم أن عليه فرزَ رجاله، ليأخذَ معه المقاتلين الأشِداء ذوي البأسِ والجَلَد والصبر على الجهاد فقط، فالحربُ ليست نزهةً ليذهب إليها الجميع، فكان لزامًا عليه أن يضعَ جندَه في اختبار قاسٍ لقياس درجةِ صَلابتهم في الظروف الصعبة. مرَّ الجيش بنهرٍ وكانوا في غايةِ العطش، فإذا بطالوت يُخبرهم أنَّ الله سيَختبرهم بنهر، فمَن شربَ من النهر بأكثر من غُرفةٍ بيدِه، فلن يكون له مكانٌ في القتال، هذا هو الامتحان، وقد بيَّن شروطَ اجتيازه لهم، مَن يُكثر في شرب الماء فسوف يتمُّ تسريحُه، فمَن لا يطيق العطشَ لسُويعات فلن يَحتمل ويلاتِ الحرب.

إنَّ التدريبَ القاسي والاختباراتِ الصعبة ضرورةٌ قبل كلِّ مُنازَلة، والتَّواني في بَذل الجهد والعرق ليس إلا أولُ طريقِ الهزيمة، كما أنَّ اختيارَ

الفرد المناسب للفريق أحدُ شروط الفوز، وكما يقال: فإنَّ قوةَ السلسلة تُقاس بقوةِ أضعفِ حلقاتها؛ لذلك حرصَ طالوت على التخلصِ من الضعفاءِ لأنهم سيبثّون الروحَ الانهزامية ويسبِّبوا الخللَ في صفوف الجيش، وهذا ما حدثَ مع خاتَم الرسل ﷺ، حينما وصفَ القرآن خطرَ المنافقين في المعركة، فالمنافقون لن يَزيدوا الجيشَ إلا نَقصًا، هُم زيادة وَهمية، وجدارٌ يريد أن ينقضَّ في أي لحظة.. ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾(التوبة: ٤٧).

وصلَ جندُ طالوت إلى حافَّة نهر، العطش يكاد ينهشُ حناجرَهم، والماءُ الزُّلال يجري بين أيديهم، يَدعوهم للارتواء. إنه ابتلاءٌ لقوَّة العزيمة والصبر، كانت توجيهاتُ القائد شديدةَ الوضوح والصَّرامة؛ غُرفة ماءٍ واحدة باليَد، لكن أكثرهم لم يَصمدْ وانكبّوا على الماء ليَرووا ظمأهم، بينما صبرتْ قلةٌ من الجند على العَطش والتزموا بتعليماتِ طالوت.. ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾(البقرة: ٢٤٩).

تُرى هل كانت شربةُ الماء الزائدة التي شَربوها تساوي الحرمانَ من أجر وشرفِ الجهاد! إنها زينةُ الدنيا تتلألأ في العيون وتَتَلاعب بالقلوب حتى تُغوي أكثرَ الناس. في وقتِ الفتن يتوقف العقلُ عن التفكير، تلهثُ النفسُ وراء الشهوة، فتزِلَّ قدمٌ بعد ثُبوتها، بينما تَثبت فئةٌ قليلة من البَشر أمام الفتن، إنها الفئةُ المُحسنة التي ترى الله وتَذكره دَوْمًا، هنالك لحظاتٌ فارقة في حياة الأمَم والبَشر، ربما بصَبر ساعة واحدة تبلغ أعلى الجنان، وقد بشَّر الرسول ﷺ الرجلَ الذي يرفض دعوةَ امرأة ذاتِ مالٍ وجمال

بظِـلِّ الله يـوم لا ظِـلَّ إِلَّا ظِلُّـه: "ورجلٌ دَعَته امـرأة ذاتُ مَنصـب وجَمـال إلى نفسـها، قـال: إني أخـاف الله)[1]، موقـفٌ واحـد تتماسَـك فيـه وتصـبر وتثبُـت وتَرفـض ليلـةً ماجنـة، أو تـردّ كأسَ خمـر، أو تَمتنـع عـن شـهادة زور؛ فربـما يكـون ذلـك سـببًا لتَحظـى بنعيـم دائـمٍ وجنـةٍ كعـرض السـماء والأرض.

سـارَ طالـوت بجُنـده الذيـن صَـبروا عـلى العطـش وأطاعـوا أمـرَه لملاقـاة عدوِّهـم، فلـمّا تـراءتِ الفئتـان، ونظـرَ جيـش طالـوت إلى قـوَّة وعَتـاد عدوِّهـم؛ زاغـتِ الأبصـار وبلغـتِ القلـوبُ الحناجـر، ودبَّ الخـوفُ في الأوصـال، وظنّـوا بـالله الظنونَـا، وقالـوا لسْـنا كُفئًـا لنُقاتـل جيـشَ جالـوت. رأوا أنفسَـهم قزمًـا أمـام عـدوٍّ عمـلاق، ومـن هنـا تبـدأ الهزيمـةُ مـن الدّاخـل، مـن الشـعور بالدّونيـة والنَّقـص اللَّذيْـن يَـدوران في عقـول الانهزاميّين، ولعـلَّ عقـدةَ النقص التـي عانـى منهـا بنـو إسرائيـل كان سـببُها الأسـاسي عيشَـهم في الـذلِّ والهَـوان لفـتراتٍ طويلـة، فقـد احتَقَرهـم فرعـون وذَبَّـح أبناءهُـم واتَّخـذ نسـاءهم خَدمًـا، ثـمَّ جـاء العمالیـقُ فأكثـروا فيهـم القتـلَ والسَّـبي وسَـلبوهم التابـوت، كلُّ ذلـك أصَّـل لعقـدةِ الدّونيـة في نُفوسـهم.. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾(البقـرة: ٢٤٩). كانـتِ الصـورة الذهنيـةُ التـي رسـمَها بنـو إسرائيـل لأنفسـهم ولعدوِّهـم هـي الكابـحَ لقدراتهـم، ممـا أثَّـر عـلى قرارتهـم وواقعِهـم الـذي عاشـوه. إنَّ التعظيـمَ مـن شـأن قـدراتِ الخصـوم وتصويرَهـم عـلى أنهـم كائنـاتٌ خارقـة لا يمكـن منافَسـتها أو هزيمتُهـا مـع الاسـتكانة والقناعـة بفكـرةِ ضعـفِ إمكانياتنـا وقلـة حيلتنـا؛ هـو مـا يثبِّـط عزيمتنـا ولا يَجعلنـا نَـبرح مكانَنـا الـذي لا يناسـب أمتَنـا العظيمـة وقيمَنـا السـامقة وديننـا السـامي.

(١) صحيح البخاري: ٦٨٠٦.

أمام هذا التراجع والتَّقَهْقر بين أغلب الجندِ ثبتتْ فئةٌ مؤمنة في جيش طالوت، ورفضت الإذعانَ والاستسلامَ لشهواتها واعتصمَت بمَدد الله وعونِه وقالت: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾(البقرة: ٢٤٩). إنَّ النصرَ بإذن الله وأمرِه، هو الناصرُ الذي لا يخذل أولياءه، وما عَلينا إلا أن نصبرَ ليَكون معنا. الصبرُ مفتاح الفَوز في هذه الحرب، وليس كثرة العَدد والعَتاد، ثمَّ إنهم هم المؤمنون الطائعون، وعدوّهم المعتدي الفاسق؛ لذلك فإنهم أوْلى بالنصر إن صبروا.

{الذين يظنون أنهم مُّلاقُوا الله}: كانت هذه هي الصفةَ اللازمة لاستنزال تأييدِ الله ونَصره على بني إسرائيل، فحينما تعتقدُ بصدقٍ أنَّ الموت ليس نهايةَ الرحلة، وأنك إليه ذاهبٌ، وسوف تُلاقيه فيُحاسبك ويجازيك؛ ستَختلف الأمورُ في عينيك، ستقيس الأشياءَ بميزانٍ آخر؛ بميزان الآخرة، ستتكلم لغةً فريدة ثُنائية ذات رَمزيْن: حسنة وسيئة، جنة ونار، هذه الصفةُ جعلت جندَ طالوت يرونَ النصر واقعًا ماثلًا أمام أعينهم، وما عليهم سوى الصبر لساعةٍ حتى يتحقَّق، وأنَّ مَن يدركه الموت فإنه سيَلقى مولاه وهو راضٍ عنه؛ لذلك شاهدوا جالوت وجيشَه بعين الاستصغار، وأيقَنوا أن جندَ الله هم الغالبون، فثبتوا وثبَّتوا باقي الجيش.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾(البقرة: ٢٤٩).

قلَّة صادقةٌ خيرٌ من حشدٍ كاذب، الأصدقاء الحقيقيون هُم السندُ في كلِّ مأزق. أما المزيَّفون- على شاكلة أغلبِ أصحاب طالوت- فلا حاجةَ لك بهم، إنهم كغُثاء السَّيل؛ ظاهرةٌ شكلية ليس لها منفعةٌ حقيقية، تتحرَّك مع مَوج المصلحة، يقتربون في كلِّ فَرح ونَجاح، وعند أوَّل شدةٍ سيتركونك ويُديرون ظهورهم.

فلمّا تقابل الجيشان، فإذا بجيشِ بني إسرائيل يأخذ بأهمِّ أدواتِ الغَلَبة والفَوْز، وهو اللجوءُ إلى الله، دعوا بالصَّبر ثمَّ الثبات وخَتَموا بالنصر، وكان الترتيبُ في الدعاء غايةً في الحكمة، فإنَّ الصبر على ويلاتِ القتال يؤدّي إلى الثبات وعدم التَّقهقر والتَّقدم، ومن ثمَّ يأتي النصر، فتَحقق لهم الفَتْحُ بفضل الدعاء الذي يلجأ إليه المؤمنون في يوم الملحَمَة.. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ (البقرة: ٢٥٠).

جاءتِ البشارةُ بالانتصار في أوَّل الآية التالية، وكأنَّ النصر واقفٌ ببابهم ينتظر شارةَ العبور إليهم، وكان الدعاءُ هو تلك الشارة.. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾(البقرة: ٢٥١).

برزَ في هذه المعركة نجمُ دَاوُد عليه السلام فقد كان أحدَ جنود طالوت، أحد الذين ظنّوا أنهم مُلاقوا الله ولم يَرهبوا طالوتَ وجيشَه، بل إنه بطلُ المعركة الذي قتلَ جالوت بكل قوتِه وجَبروته وسلاحه وخبرتِه في الحرب، كان النصرُ حليفَ دَاوُد لأنه اعتمدَ على الله فنَصَره وأيَّدَه ومَكَّنَه من قتل جالوت.

يُقال إنَّ جالوت طلب مَن يُبارزه، فقام له دَاوُد- وكان ما يزال شابًّا في ذلك الوقت-، خرج إليه بالمقلاع[1] وبمخلاة[2] فيها أحجار، فاستَهتَر واسْتهزأ واسْتَصغره جالوت، لكن دَاوُد أخذَ حجرًا ورماه بالمقلاع، فأصابت جالوت وخرَّ صريعًا[3].

هكذا انتهت أسطورةُ ذلك الملك الجبّار (جالوت) الذي قتلَ وسَبى ونَكَّل ببني إسرائيل، انتهت على يدِ شابٍّ (دَاوُد) يحمل مِقلاعًا، لكن ذلك الشابّ كان مؤمنًا صادقًا، أيقن أنَّ الله ناصرُه، وأنَّ عليه أن يأخذ بالأسباب المُتاحَة. فعلَ كلَّ ما في وسْعه، رمى ذلك العدوَّ الغاشم بكل ما أوتيَ من قوَّة وخبرة في الرماية وتَوكّل على الله، علمَ أن القوةَ لله وليست للسلاح، أيقن أنَّ رميتَه مجردُ سبب، وأنها وإن كانت تَخرج من مِقلاعه إلا إنَّها مُرسَلة بحَول الله وقوته، فنَصرهم اللهُ على عدوِّهم كما نصرَ المؤمنين يومَ بدر.. ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (الأنفال: ١٧).

انهارَ جندُ جالوت بمجرد رؤيتِه صَريعًا بضربة دَاوُد، أدركوا أنَّ الجيش الذي يقاتلونه ليس كسابقِه، أنَّهم جندٌ يَملك الإرادةَ والعزيمة والصبر، وفوقَ ذلك فهو مؤيَّد من السماء؛ فدبَّ الرعبُ في قلوبهم واختلفَت صفوفُهم وصاروا صيدًا سهلَ المنال لجيشِ المؤمنين، فكان النصرُ حَليفًا لجيشِ طالوت، وكان الخزيُ نَصيبًا للفئة الباغية.

(١) المقلاع: أداة لقَذف الأحجار غالبًا يُستخدم لصيد العصافير.
(٢) المخلاة: كيسٌ يحَوِي لوازم ومُهمَّات الجندي.
(٣) تفسير الطبري، بتصرف واختصار.

انتصرَ فريقُ طالوت عندما صبروا وتوكَّلوا على الله وأيقَنوا أنهم ليسوا أقزامًا، حينما عَلموا أنهم يُحاربون أناسًا أمثالَهم وليسوا جبابرةً أو عمالقة، ضربةُ حجرٍ واحدة عرَّفتهم حجمَ عدوِّهم الحقيقي، علموا أنهم كانوا مُنهزمين بسبب أوهامٍ عن عظمة وقوَّة جيش جالوت، هذه الأوهامُ مثَّلت حاجزًا من الخوف أعجزَهم عن التَّفكير والتَّدبير والجهاد، وعلى العكس كان جنودُ طالوت يعيشون في زيْفٍ بأنَّهم الأعلى والأقوى، كانوا يدركون أنَّ بني إسرائيل أجبنُ من أن يُقاتلوا، ولكنهم أفاقوا على وَقع صَدمة توحُّدِهم خلفَ قيادة قوية وحَكيمة، ورأوا إصرارًا وإيمانًا وانضباطًا وقوَّة وصبرًا لم يَعهدوها في بني إسرائيل من قبْل، فمالبثَ أن ذابَ جبلُ الأوهام أمام حرارةِ الصابرين، وفَّروا من المعركة وانهزموا شرَّ هزيمة.

***

الحفيـدُ: أصدقائـي، يجـب أن نفـوزَ بالمبـاراة القادمـة، فلَسـنا ضعفـاء، ومنافسـونا ليسـوا عَمالقـة، ولنـا في قصـة طالـوت وجالـوت عِـبرة، كـم مـن فئـةٍ قليلـة غلبَـت فئـةً كثـيرة بـإذن الله.

أصدقاءُ الحفيد: نعم سنَفوز بإذن الله، ماذا علينا أن نفعلَ حتى نفوز؟

الجـدُّ: أولًا تَسـتعينون بـالله، ولا تَجعلـوا الرياضـة تُلهيكـم عـن الصـلاة، ثـمَّ تَختـارون قائـدًا جيـدًا، وتَبنـون خطـةً مُحكَمـة، وتتدرَّبـون بجـدٍّ ومثابـرة، وأخـيرًا، لا تجعلـوا بينكـم مُتخـاذلًا، وأظنُّكـم جميعًـا مِقدامـون.

الحفيـدُ: أتمنـى أن أكـونَ مثـلَ طالـوت قائـدًا قويًّـا مُحَنَّـكًا، يعـرف كيـف يختـار فريقَـه ويعدّهـم للمعركـة.

الجدُّ مُبتسمًا: وفَّقكم اللهُ جميعًا، وغدًا أراكم أبطالًا بإذن الله.

الحفيدُ والأصدقاءُ بحماسة: غدًا سنكون الأبطالَ بإذن الله.

الحفيـدُ: ومـاذا حـدثَ بعـدَ انتصـار طالـوت عـلى جالـوت، هـل كانـت هنـاك معـاركُ أخـرى؟ هـل عـلى المنتَـصر واجبـاتٌ حتـى يحافـظ عـلى فَـوزه؟

الجـدُّ: كـما يَقولـون فـإنَّ الوصـولَ للقمـة صعـب، لكـنَّ الأصعـب منـه هـو الحفـاظُ عليهـا، كان عـلى داود عليه السلام ومِـن بعـدَه سـليمان عليه السلام العمـلُ الجـادُّ للمحافظـة عـلى قـوةِ الدولـة، وهـذا طبعًـا بوحـي وفَضـل مـن الله.

الحفيدُ: وهل يَعمل الملوك؟

الجـدُّ: طبعًـا يـا بنـي، فقـدِ اشـتغلَ داود عليه السلام بصناعـة الـدُّروع لتَقـي جنـودَه مـن ضَربـات السـيوف والرمـاح، ثـمَّ كان عليـه القضـاء بـين النـاس.

الحفيـدُ: كنـت أظـنُّ القصـةَ قـد انتهـت، ولكـن يَبـدو لي أنهـا مـازال فيهـا الكثـير، فهـلّا أكملتَهـا لنـا!

الجدُّ: لا بأس، ولكن أعيروني أسماعَكم وقلوبكم.

***

وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ

استطاعَ بنو إسرائيل هزيمةَ جالوت وجندِه بإذن الله، وظهرَ في هذه المعركة دَاوُد كجنديٍّ شديدِ الشجاعة والتوكُّل على الله. ارتقى دَاوُد من جنديّ مَجهول في جيش طالوت إلى بطلٍ قومي ورمزٍ وفخرٍ لأمته، حتى اعتلى أعلى مَكانة؛ حيث أصبحَ ملكًا على بني إسرائيل، بل واصطَفاه المولى ﷻ وجعلَه من المرسَلين وأمدَّه بالعلم والحكمة، فاجتمعَ له شرفُ النبوَّة والملك معًا ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

أصبحَ دَاوُد عليه السلام أحدَ حَملة مَشاعل النور الرباني إلى الناس، وأنزل اللهُ عليه كتابًا سماويًّا هو "الزبور" ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ (الإسراء: ٥٥). وآتاه اللهُ صوتًا جميلًا نَديًّا حتى إذا تغنَّى بذِكر الله سبَّحت معه الجبالُ والطير، وجعلَ الحديدَ ليِّنًا بين يديه مثلَ العجين، يُشكِّله كيفما شاء.

إنَّ الله ﷻ إذا أحبَّ عبدًا سخَّر له الدنيا وما فيها. هذا دَاوُد عليه السلام عبدٌ لم يكن له ذكرٌ بين قومه، فرفعَه الله وسخَّر له أقسى المخلوقات؛ الجبال والحديد، فأمّا الجبال فإنها تسبِّح خلفه، وأما ذلك المعدنُ القاسي فهو يكاد يَذوب بين أنامله، كلُّ ذلك ببركة طاعةِ الله، فلا صَعب ولا مستحيلٌ إن كنت في مَعيَّته.. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ (سبأ: ١٠).

مع أنَّ داود ﷺ كان ملكًا يَحكم ويُسيطر على مالِ ومقدَّرات مَملكته، إلا أنَّه كان متعفِّفًا وزاهدًا، حرَّم كنوزَ مَملكته على نفسه، وانكبَّ يَعمل ويكدُّ ليَكسب قوتَ يومه، لم يعشْ كالملوك في تَرفٍ ورفاهية، واكتفى باليَسير الذي يُقيم صلبَه، مصدِّقًا للحديث الشريف (إنَّ داود النبي ﷺ، كان لا يأكلُ إلا من عمل يده)[1] اشتغلَ بصناعةِ الدُّروع السابغة للجندِ لتحصنَهم من طعناتِ السيوف والرماح.. ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾ (سبأ: ١١).

لم يحتقرْ داودُ ﷺ الحِرَفَ اليدوية، وعملَ في صُنع الدروع، فالنجار والحدّاد والفلّاح مهنٌ مُنتجة، ولا يمكن لمجتمعٍ ما الاستغناءُ عنها، لكنَّ الشباب الآن يبحثون عنِ الوظائف ذاتِ الوَجاهة الاجتماعية فقط، أصحاب الياقات البيضاء وربطاتِ العُنق الأنيقة، فكيف لمجتمعٍ أن يتطوَّر وينمو إذا عمل جميعُ شبابه في وظيفة "رجل مبيعات" أو "سمسار عقارات"! فمَن يصنع أثاثَنا ويُصلح سياراتنا ويَبني بيوتَنا حينئذ؟

أمرَ اللهُ ﷻ نبيَّه داود ﷺ أن يُحسِن ويُجيد صنعَ الدروع.. ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾، حتى تكون الدروعُ مُستوعِبة لكامل جسدِ الجندي، وتكونَ الحلقات والمساميرُ المصنوع منها الدروعُ بالقَدر المناسب ليَجعلها مَتينة فتَحمي الجسدَ من الأذى أثناءَ المعارك، وهو ما يشيرُ إلى أهمية وضَرورة إتقان العمل، وبخاصَّة إذا كان هذا العملُ يترتَّب عليه حياةُ ومصالح الآخرين. والإهمالُ في العمل ليس من سماتِ المؤمن، وهو أمرٌ يحطُّ من شأن الفرد والأمَّة معًا.

(١) صحيح البخاري: ٢٠٧٣ .

وتوجُّـهُ داود عليه السلام لصناعـةِ الـدروع يـدلُّ عـلى ضرورة يَقظتِـه ورَفـع درجـات الاسـتعداد لمواجهـة الأخطـار، فالأعـداءُ دائـمًا يتربَّصـون بالغافلـين الضعفـاء؛ لذلـك كان عليـه أن يقـوِّي جيشَـه ويُعـدَّ للإعـداء مـا اسـتطاع مـن قـوةٍ ليُرهبهـم ويَحمـي مملكتـه.

إنَّ تَمركـز المُلـك والرسـالة في يـدِ داود عليه السلام سَـهَّلَ عليـه قيـادةَ قومـه بنـي إسرائيـل، فالرعيـةُ غالبًـا مـا تَتبـع عقيـدةَ الحاكـم، فـإن لم يكـنْ عـن اقتنـاعٍ فمُداهنـةً لـوليِّ الأمـر، وقـد كان دَاوُد عليه السلام عظيـمَ المُلـك شـديدَ القـوة والهَيبـة، حتـى قـال عنه ابـنُ عبـاس: كان أشـدَّ ملـوك الأرض سـلطانًا[1]، هـذا بالإضافة إلى النُّبـوة والحكمـة والقـدرةِ عـلى الفصـل بـينَ المتخاصمـين.. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ (ص: ٢٠)، لذلـك فـإنَّ ابتـلاء داود عليه السلام كان مُختلفًـا عـن باقـي الأنبيـاء.

فبَينـما داود عليه السلام في بيتِـه إذْ برَجُلـين يتسـلَّقان جـدارَ بيتـه، ففوجـئ بهـما في مَجلسـه، ففَـزِع منهـما، فمَـن يَدخـل بهـذه الطريقـة المُريبـة لا يريـدُ خـيرًا، ثـمَّ مَن لديـه الجـرأةُ ليَفعـل ذلـك؛ يَنتهـك خصوصيـةَ أعظَـم ملـوك الدنيـا آنـذاك دونَ موعـدٍ مُسـبَق ولا حتـى اسـتئذان! وأيـن ذهـب الحـرس، وكيـف غافَلوهـم؟! هـدَّأ الرجـلان مـن رَوع نبـيِّ الله عزوجل وطَفِقـا يَشرحـان قضيتَهـما: نحـن خَصـمان ظلـمَ أحدُنـا الآخـر. يُريدانـه أن يقـضي بينَهـما بالعـدل وألّا يجـورَ في حكمـه.. ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ (ص: ٢١-٢٢).

(١) تفسير البغوي، وعزاه لابن عباس.

وقام أحدُ الخَصمين يروي القصةَ من زاويتِه: إنَّ هذا أخي يملك تسعةً وتسعين نعجة وأنا لي نعجةٌ واحدة، فطلبَ أن يضمَّ نعجتي إلى نِعاجه وضَيَّقَ عَليَّ وحاصَرني وغلبَني في الكلام. كانت روايةُ المُدعي كفيلةً لتَهييج مشاعرِ التعاطف مع ذلك الخَصم الضعيف الفقير، وإثارة الحنْق على الطرف الآخر الظالم المتجبر على أخيه، أما يَكفي ذلك البَاغِي ما وهبَه اللهُ له- تسعة وتسعين نَعجة- فيَطمع في الزيادة! ثمَّ إنه يَطمع في أخيه، ربَّما يقصد الأخوَّة في النَّسب أو الدين أو صديقه الذي يَعتبره بمَثابة الأخ، فكيف تَربطهما هذه العلاقة الوثيقة ثمَّ يضيقُ عليه ويغلبُه في الكلام.. ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾(ص: ٢٣).

تعاطفَ داود عليه السلام مع المُدعي وأطلقَ حكمَه دون الحصول على بيِّنةٍ أو الاستماع لحجَّة المدعى عليه، وقال إنَّ الرجلَ الذي أراد أخذَ النَّعجة الوحيدة وضمَّها إلى التسعة والتِّسعين التي لديه ظالمٌ في ذلك.. ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ٢٤﴾ (ص: ٢٤). لقد كانتِ القضية واضحة، أو هكذا بدتْ لداود عليه السلام، رجلٌ مع ثرائه يَطمع فيما يملك أخوه الفقير، لكنه بمجرَّد أن نطقَ بحُكمه اختفى الخصمان، فعرفَ أنهما مَلَكان جاءا ليَختبراه، وتنبَّه أنه غفلَ عن سماعِ الآخر، كما أنَّ الطرف الأول لم يقدِّم البَيِّنَة على كلامه، فلا شهود ولا وثائق، هنا أدركَ نبيُّ الله ﷻ أنه ابتلاءٌ من الله وأنه لم يَجْتَزه؛ كان عليه التَّروّي والتثبُّت، فاستغفرَ وسجدَ لله تائبًا. وهكذا هُم عبادُ الله يسارعون في التوبة والإنابةِ والاستغفار كلما بدرَ منهم ذنبٌ، لا يسوِّفون

ولا يتلمَّسون لأنفسهم أعذارًا..﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ (ص: ٢٤).

إنَّ التسرعَ وإطلاقَ الأحكام دون معرفةِ جميع جوانب الموضوع والملابَسات وسَماع جميع الأطراف؛ يؤدّي بنا إلى استنتاجاتٍ خاطئة، وبالتالي ردود فِعل غيرِ صائبة، فكلنا يقع في مَصيدة الانحياز لطرفٍ لأنه الأقربُ إلينا فحَكَى القصة من جانبه فظهرَ كمَظلوم ووَقَفنا في صفِّه، وخاصَمنا عدوَّه دون أن نسمعَ له ليوضِّح موقفَه ودوافعه ويُبين نيتَه ومَقصدَه.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ حينما يتبوّأ المرءُ منصبًا كبيرًا ويَستوي على كرسيِّه العالي المريح، ويُصبح ذا قوةٍ ونفوذٍ وحُكم نافذ؛ يكون ابتلاؤه مُختلفًا، يُختبر فيما وهبَه الله من نعمة، هل يشكر المُنعِم أم يقول إنَّما أوتيتُه على علمٍ عندي؟! هل يُتقن عملَه أم يُهمل ويؤجِّل؟! هل يَعدل بين مرؤوسيه أم يُحابي الأصدقاءَ والأحبَّة؟! إنَّ فتنةَ الكرسي فتنةٌ عظيمة لا يَنجو منها غيرُ القلَّة الفَطِنة.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وصفَ نبيُّ الله داود عليه السلام حالَ الشركاء بدقةٍ بالغة، فكثيرًا ما يَدخل الشيطانُ بين الشَّريكين، فيطمع أحدُهما في نصيبِ صاحبه، ويأخذُ ما ليس له، فحينما يَتعامل الناس في المالِ والتجارة تتغيَّر النفوس ويَضرب الجشعُ القلوب، ربما تجدُ الرجلَ لا يتكلم إلا بالقرآن والسنَّة تَحسبه صحابيًّا من هيئتِه ومَنطقه، ثمَّ إذا اشتريتَ منه أو بِعتَ له أو أقرضتَّه؛ ظهرَ لك نقيضُ ذلك.

كان استدراكُ واستغفار داود ﷺ سريعًا حينما أدركَ أنه افتُتِن، فإذا به يَستغفر ربَّه ويخرُّ ساجدًا ويتوبُ إلى الله.. ..﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾(ص: ٢٤)، ليتَنا نتعلَّم هذا الخُلق العظيم، كلما أذنبنا نستغفرُ ونَسجد ونَتوب، فربما يَعفو اللهُ عنّا ويرفع درجاتِنا في الآخرةِ مثلما حدثَ مع داود، فالقلبُ المنكَسر الذَّليل المتعطِّش لمغفرةِ مَولاه أقربُ للقبول ورضا الخالق ﷻ.. ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ (ص: ٢٥).

ويأتي الأمرُ بعد هذه القصة من الله لعَبده داود ﷺ بالخلافةِ في الأرض، ومِن مسئولياته القضاءُ بين الناس بالعَدل، وعدم اتِّباع الهوى؛ فبالعَدل تقوم الدولُ وتَزدهر وتتنزَّل بركاتُ الله، والأوْلى أن يتركَ بابه غيرَ موصَد أمام رعيتِه للاحتكام إليه ورعاية شئونهم؛ حيث يقال إنَّه خصصَ الليلَ للصلاة والعبادة ولم يكن يَستقبل أحدًا من الناس في ذلك الوقت، ولعلَّ ذلك أحدُ الأسباب التي دَعَته إلى العَجلة في إصدار حكمه، فهو يشتاقُ للعَودة إلى خَلوتِه ليُناجي ربه، لكن إدارة شئون الأمة مُقدَّمة على نَوافل العبادات.. ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾(ص:٢٦). هناك عباداتٌ عامَّة لكل الناس، مثل الصلاة والصوم، وهناك عباداتٌ تخصُّ حالةَ كلِّ فرد، فالغنيُّ عليه أن يتعبدَ بكَثرة الإنفاق على الفقراء، وبذل العِلم عبادةُ العلماء. وقد كان داود ﷺ عظيمَ العبادة فهو يصوم يومًا ويُفطر يومًا ويَقوم ثلثَ الليل، وقد جاء في الحديثِ عن كمال وجَمال وتوازن عبادتِه: "إنَّ أحبَّ الصيام إلى الله صيامُ داود، وأحبّ الصلاة إلى الله صلاة داود ﷺ؛ كان ينام نصفَ الليل، ويَقوم ثلثَه، وينام

سدسَه، وكان يصوم يومًا، ويُفطر يومًا"[1].

تَدور الأيامُ وكما بزغَ نجمُ داود في قصة طالوت يأتي تَأَلُّق سليمان عليه السلام في إحدى المنازعات التي يَحكم فيها داود بعلمِه وحكمتِه، ولكن سليمان قضى بحُكمٍ يفوق أباه حِكمة، فقيل: إنَّ الغنمَ دَخلت في بستان رجلٍ فأفسدتِ الزرعَ به، فتقاضى صاحبُ البستان ومالكُ الغنم لداود ليَحكم بينهما، فقضى أن يأخذَ صاحبُ البستان غنمَ الرجل الآخر عقابًا له على إهماله، ولكن سليمان ألهمه اللهُ خيرًا من ذلك، فحكمَ بأن ينتفعَ صاحبُ البستان من ألبان وأصوافِ الغنم إلى أن يقومَ الآخر بإصلاح الحرث الذي خرَّبته غنمُه، فإذا رجعَ الزرعُ إلى حاله الأوَّل عادَ لكلِّ واحدٍ ما كان يملك.. ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ (الأنبياء: ٧٨-٧٩).

أن تعتقدَ أنَّ رَجاحةَ العقل والقول السديد حِكرٌ عليك لأنك الأكبرُ سنًّا أو الأكثرُ خبرة؛ هو منتهى الحَماقة، فحتى داوُد عليه السلام الذي منحَه اللهُ الحكمة فاقَه ابنُه سليمان فِقهًا في إحدى المسائل، وفي غزوةِ بدر الكبرى يغيِّر الرسولُ الكريم ﷺ موقعَ الجيش ويأخُذ بمَشورة الصحابي الحُبَاب بْنُ المُنْذِر، لم يتأففْ من الرأي الأخر، ولم يسفِّه من مَشورة الحُباب، بل استمعَ بكلِّ جَوارحه واقتنعَ ونفَّذ، فإن كانَ هذا شأنَ الأنبياء فما لنا نستبدُّ بآرائنا، ولا نُعطي مساحةً للتفكير في آراء مُغايرة لما نَعتقد، فربما فيها الخيرُ والفائدة، وإن جاءت ممَّن هُم أقلُّ منا.

(١) صحيح مسلم: ١١٥٩.

العدلُ أساسُ المُلك، لهذا اجتهدَ نبيّان (داود وسليمان) ليَصلا إلى الصواب، ولعِظم مكانة العدل لم يتركْ داود عليه السلام القضاءَ إلى أحدِ الرعية وتولّاه بنَفسه، فلا تَستقيم الحياةُ ويستتبّ الأمنُ ويعمّ الرخاء؛ إلا بعدَ أن يسودَ العدل ويُصبح شريعةً بين افراد المجتمع، وقد حرَّم اللهُ الظلمَ على نفسه وجَعله محرَّمًا بيننا، ووردَ عن ابن تَيميَّة: (إنَّ اللهَ يقيمُ الدَّولةَ العادلةَ وإن كانت كافِرةً، ولا يقيمُ الدَّولةَ الظَّالمةَ وإن كانت مُسلِمةً)، فلنَجتهد لإقامةِ العدل في كلِّ مَوضع حتى تَغشانا رحمةُ الله وبركاته، ولنَبدأ في بيتنا بين أولادنا، وفي مكان عملنا، فالعدلُ مسئولية مشتركة.

أوْلى الشرعُ الحنيف أهميةً كبرى للمِلكية الفردية، حيث نُسِجت أحكامُها بعناية فائقة لتعظِّم حرمةَ الممتلكات والأموال والدماءِ والأعراض، حتى إنَّ الرسول ﷺ أشارَ في خطبةِ الوداع إلى خطورةِ التَّعدي على هذه الحرمات مُشبِّهًا إياها بحُرمةِ يومِ عرفة، في البلد الحرام: مكة، في الشهر الحرام: ذي الحِجَّة، ومن هذا المنطلق شدَّد داود وسليمانُ عليهما السلام العقوبةَ على صاحب الغنم، فحكمَ داود بأن يُحرَم المُعتدي من غنمِه طيلةَ عُمره، بينما قَضى سليمان بأن يُصلح ما أتلفَه من الزرع وألّا يَنتفع بغنمِه طوالَ فترة الإصلاح، وهي عقوبةٌ مُغلَّظة تَحمل في طياتها درسًا قاسيًا في احترامِ حقوق الآخرين، فحقوقُ الناس مُصانة في دين الله ولا يجوزُ التهاونُ مع مَن ضيَّعها؛ ولذلك فُرِضَت الحدود، حتى تَردع المُعتدين والمُهمِلين، فاحذرْ أن تتلفَ سيارة أو حديقة أو أيًّا من مُمتلكات الغير، وإن تسبَّبت في أيِّ أذًى فاحرصْ على إصلاحِ ما أفسدتَّه خوفًا من العقوبة الإلهية في الآخرة.

إنِ استطعت فهمَ ما استعصَى على الكثيرين، إن تمكَّنتَ من حلِّ لغزٍ مُحيِّر أو مسألة عَويصة صَعبت على غيرك، إن تعلَّمت فنًّا أو علمًا مُعقدًا

أشْكلَ على الناس؛ فلا تَختَلْ على العبادِ بهذا الفَضل، فإنما هي نعمةٌ وهبَها الله لك، هكذا أفهمَ اللهُ سليمان حلَّ قضية الغنم.. ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فالفهمُ والعلمُ والحكمة عطاءاتٌ من المولى ﷻ تَستوجب الشكرَ له والتواضعَ بين الناس، وهي أرزاقٌ يوزِّعها على خلقه بحِكمته، فكنْ شاكرًا لأنعمِه يُبارك لك فيها ويَجزيك أجرَ الشاكرين. استشعرْ وجودَ الله مع كلِّ كلمةٍ تَفهمها، وفي كلِّ شهيقٍ تتنفَّسه، وفي كلِّ لقمةٍ تأكلها، فهو الذي يَمنحك القدرةَ على التَّنفس والشرب والأكل والنُّطق والاستيعاب والفِكر والقراءة والكتابة والفعل، فلو تركَكَ طرفةَ عين لهَلَكت، بعطائه نَعيش ونحيا، فلا تنسَ فتَشقى.

هكذا الحياةُ لا تدوم لإنسان، نحن حلقةٌ صغيرة في سلسلةٍ كبيرة، لكلٍّ منّا وقتُه ثمَّ تسلَّم الراية جيلًا بعد جيل، مَهما علا شأننا وزادت قوتُنا ووسعَت معرفتُنا؛ سنكبر ونَشيخ ويأتي جيلٌ مُفعَم بالحيوية والأمل ليُكمل المسيرةَ ويأخذ دورَه. داود أدهشَ قومَه حين قضى على جالوت وهو شابٌّ صغير، ثمَّ أصبح أقوى ملوكِ الدنيا في وقته وشدَّد الله مُلكَه وآتاه الحكمةَ وفَصل الخطاب، ثمَّ يأتي ابنُه سليمان عليه السلام ويُفتي بأحكمَ منه في قضيةِ الغنم إيذانًا بصعودِ جيل سليمان لتَسلُّم المسئولية من داود وجيلِه، فلا أحد سيُخلَّد، كلنا تاركٌ هذا العالم، فإما إلى جنةٍ عرضُها السموات والأرض، وإما إلى نارٍ وقودُها الناس والحجارة، فاعملْ لتلك الحياة الباقيَة.

رجعَ داود عليه السلام إلى بيته يومًا ففوجئ بغريبٍ فيه، "فقال له داود: مَن أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهابُ الملوكَ ولا أمْنَعُ من الحجّاب. فقال داود: أنتَ والله إذن مَلَكُ الموت، مرحبًا بأمر الله"[1].

(١) البداية والنهاية:٢ / ١٦.

مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي!

كلُّ شيء في هذه الدنيا مصيرُه الفناء، حتى أنبياء الله وأصفياؤه كان مَصيرهم الموت. عاش داود عليه السلام حياةً مَليئة بالبطولات والإنجازات، أسَّس فيها أولَ مملكةٍ قوية لبني إسرائيل، ثمَّ مات وخلفَه ابنُه سليمان ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾(النمل: ١٦)، ورثَه في المُلك والحُكم والخِلافة في الأرض. أعدَّ داود عليه السلام سليمان عليه السلام أحسنَ إعدادٍ، فدرَّبه على شئون الحكم والقَضاء بين الناس، وذلك ما اتَّضح لنا في قصة الحرثِ الذي نفَشَت فيه الغنم، ورأيناه استدركَ على حُكم أبيه، بل وقَضى فيها بأفضلَ من أبيه، بفهمٍ منَحَه الله له.. ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

كان للإعدادُ الجيد لسليمان عليه السلام دورٌ هامّ في استمرار تَقدم وتطوُّر الملكة؛ حيث بلغ ملكُ سليمان مَبلغًا عظيمًا لم يبلغْه مَلَك بعدَه، ويقال إنه أحدُ أربعة ملوك حَكموا الأرض. إنَّ التدريب الجادَّ للأبناء هو الضمانةُ لمستقبل مُشرق، وإنَّ إعطاءَ الجيل الجديد الفرصةَ للمشاركة في إدارةِ الأمور والاستئناس بآرائهم ووجْهات نظرهم في حلِّ المشاكل القائمة يَمنح المجتمعَ رئةً جديدة، يمكنُ من خلالها الوصولُ إلى حلول خلّاقة وأفكار إبداعية.

ورثَ سليمان عليه السلام مملكةً فتيَّة من أبيه، لكنه لم يخلدْ إلى الراحة والدَّعة والاستمتاع بهذا المُلك، فقد تعلمَ سليمان أنَّ العملَ عبادة، فقد كان داود عليه السلام لا يأكلُ إلا من عَمل يده، وكان يصنع الدروعَ السابغات للجُند، ويحكم بين

الناس بالعدل، فتأسَّى بوالده ومشَى بسيرتِه في الحكم، هكذا هُم الأنبياء يُصنَعون على عين الله؛ فيُيَسر الله لهم التَّجهيز والتهيئة المناسبيْن للرسالة.

رأى سليمان أباه داود يُتقن عملَه فسارَ على نَهج أبيه. إنَّ تعليمَ النَّشء لا يكون بكثرة الوَعظ والخطب العصماء؛ بل بالقدوةِ الحسَنة في القول والفعل، فإن رأوْك تُحسن للفقير وتُحافظ على الصلاة وتَتحرَّى الصدق؛ فسوف يُقلِّدونك.. لذلك بعثَ الله النبيّين ليكونوا أسوةً لنا، نراهم ثمَّ نُقلدهم في العبادات والمعاملات والأخلاق.. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب:٢١).

كان سليمان عليه السلام ملكًا وقائدًا من الدرجةِ الأولى، مملكتُه لا تَعرف للفوضى أو اللَّهو سبيلًا، كلُّ أمور الدولة في غايةِ الانضباط والنظام، وكأنه على موعدٍ مع الحرب في صباح الغد، هو وجنودُ مَملكته في أعلى درجات الاستعداد، وكأنه تفسيرٌ عمليّ للأمر {أعدّوا} في الآية الكريمة.. ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنفال: ٦٠.)

وفي أحدِ الأيام تفقَّد نبيُّ الله ﷺ سلاحَ الخيل ليتحقَّق من جاهزيتها، فهي عاملُ حسمٍ في أيِّ معركة، وكان ذلك وقتَ زوال الشمس، وإذا بالعَرض العسكري للجياد أمامَ القائد الأعلى للمملكة يبدأ.. أجودُ الخيل تقف جميعُها "صافِنات" أي على ثلاثِ قوائم بينما يُلامس حافرُها الرابعُ الأرض، وكأنها جنودُ الصاعقة المُدرَّبة في حالة انتباه، متأهِّبة ومُترقِّبة للأوامر لتنفِّذها، أو أنها تؤدّي التحيةَ العسكرية للقائد،

كلُّ حركات وسكنات الخَيل محسوبة بدقة، مما يدلُّ على كثرةِ وجديَّة التدريب، بالإضافة إلى هيبة سليمان.. ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ (ص: ٣١).

وفي هذا المشهد المهيب يَذكر سليمان عليه السلام أنَّ حبَّه للخيول نابعٌ من حرصِه على الجهاد، فهي رباطُ الخيل التي بدونها يَستحيل القتال، وقد عدَّ رسولُ الله ﷺ تأديبَ الرجل لفرسِه ليس من المُلهِيات لعِظم دَورها، وفي الحديث: "كلُّ شيء ليس من ذِكر الله لهوٌ ولَعب، إلّا أن يكون أربعة: ملاعبة الرَّجل امرأته، وتأديب الرَّجل فرسَه، ومشي الرَّجل بينَ الغَرضَين، وتعليم الرَّجل السباحة"[1].

ما أن انتهتِ الجيادُ من الاستعراض، وصارت بَعيدة عن ناظريه، فدَعا عليه السلام بها لتأتيَه مرَّة أخرى، وأخذ يمسحُ على أعناقِها وسيقانها، وكأنَّه يَشكرها على أدائها المتَميز ويُحفِّزها على مواصلةِ الاجتهاد والتَّميز، ولعلَّه أراد أن يَنظر إذا ما كان فيها من مرضٍ ليُعالجها ويطمئنّ على صحتها وقوَّتها.. {﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ (ص: ٣٢-٣٣).

ومِن هذا المشهد الحيِّ الذي صوَّرته الآيات، نَتعلَّم أنَّ الجدية سبيلُ القوة والتقدم، أما حالةُ المُزاح والهَزل والتَّراخي التي سادتْ مؤخرًا في مجتمعاتنا فهي المنحدرُ الذي يَهوي بنا في دَركات التخلُّف والهَوان. أغلبُ أحاديثنا لهو، وجُلُّ أعمالنا تتَّسم بالفوضى. رَبِّ أولادَك على الجدِّ والإنجاز وتأديَة الواجبات في وقتها وبأعلى درجاتِ الهمَّة والنشاط والجَودة، وإن كنتَ رئيسًا فلا تَسمح بالهرَج في مكان العمل، وحاسبِ المُقصر.

(١) صحيح الجامع: ٤٥٣٤.

رأينا سليمان عليه السلام يُدلِّل الخيلَ المجتهدة ويَمسحُ على أرجلها وأعناقِها، وهذا من شيَم القائد الناجح، فالصرامةُ تكون مع المقصِّر، أما المجتهدُ فينبغي أن يَنال قسطًا من المدْح والتَّشريف؛ تكريمًا له ودافعًا له ولغَيره على العطاء السَّخي وحُسن الأداء؛ فاحرصْ على تَشجيع أولادك إذا أحسَنوا، قدِّم لهم الهدايا، وكذلك مَرؤوسيك، ولا تَبخل بكلماتِ الإشادة والتَّبجيل فلَها مَفعولُ السِّحر في شَحذ الهمم ورَفع العزيمة.

تروي بعضُ كتب التفاسير هذه القصةَ بطريقةٍ مُغايرة، حيث يُقال: إنَّ سليمان عليه السلام شغله عرضُ الجياد عن أداءِ الصلاة حتى غربت الشمس وخرجَ وقتُ الصلاة، فلما انتبَه لذلك دعا بالخيل فمِنهم مَن قال إنَّه قام بتَقطيع سيقانها وأعناقِها بسيفه حتى لا يلهيه شيءٌ عن ذكر الله، ومنهم مَن قال بأنه مسحَ على الخيل محبَّة وإكرامًا لها، فهي لم تُذنب حتى تَنال عقابًا[1]. وإنْ صحَّت هذه الرواياتُ فإنه يؤخَذ منها أنَّ التضحية بالغالي والنَّفيس واجبةٌ إن كانت في جَنبِ الله، فلا شيء يستحقُّ المتابعة في وقتِ الصلاة، وما يلهي عن ذكرِ الله فهو مَذموم ويجبُ تركُه، فإن سمعتَ الأذان فدعْ كلَّ ما في يدك وما يَشغلُك وحيَّ على الصلاة، أما مشاهدةُ المباراة والمسلسل ومُتابعة الاجتماع وغيرها؛ فلا تَصحُّ، وعلى المؤمن حين يَدعوه ربه أن يلبي نداءه مُسرعًا.

ولشدَّة حِرص سليمان عليه السلام على صلابةِ جيشِه أقسم أن يطوفَ بزوجاته وما ملكَت يمينه ذاتَ ليلة، وكان عددهنَّ ستين أو سبعين أو تسعين أو مائة، حتى تأتي كلٌّ منهنَّ بفارس يُجاهد في سبيل الله، ولعله لاحظَ قلَّةً في عدد الفرسان الشجعان، ونسيَ وهو في حَماسته أن يقول (إن شاء الله)،

(١) انظر: تفسير القرطبي، وابن كثير.

فلـمّا طـافَ بهـنَّ لم تحمـلْ منهـنَّ سـوى امـرأةٍ واحـدة، فولـدتْ لـه تلـك المـرأةُ نصـفَ إنسـان، فلـمّا رآه سـليمان أيقـنَ أنـه فُتـن، وأنـه كان عليـه أن يُقـدمَ المشـيئة، فتـابَ واسـتغفرَ ربـه.

لم يُنجـب النبـيُّ الملـكُ سـليمان عليه السلام طفـلًا واحـدًا مُعـافى مـن جميـع نسـائه في تلـك الليلـة، فـلا شيء يتحـرَّك أو حتـى يَسـكن إلا بقـدرةِ الله ومَشـيئته، لا ملك أو رسـول يَسـتطيع أن يغـيِّر شـيئًا مـن أقـدارِ الله؛ فاطمئـنّ رزقُـك وأولادك وصحتُـك وعمـرك مَسـطورٌ منـذ القـدم، واجعـلِ التـوكلَ عـلى الله مطيَّتَـك في قضـاء الحوائـج. ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ (ص: ٣٤)

أرادَ سـليمان فرسـانًا أقويـاءَ للجهـاد في سـبيل الله، فتوجَّـه نحـو حَلائلـه ليُنجبهـم، ونـسيَ أن يقـول (إن شـاء الله)، فلـم ينـلْ شـيئًا سـوى جسـدٍ لنصـفِ صبـيٍّ عـلى كـرسي لا يسـتطيع الحِـراك، فلـما تـابَ وأنـابَ إلى الله ودعـاه، طلـب منـه مُلـكًا لا ينبغـي لأحـدٍ مـن بعـده، فهـو الوهـابُ المُعطـي، إن كان منعَـه الولـدان لحكمـةٍ يَعلمهـا، فليَدعـوه بـكلِّ مـا يتمنَّـى، فـلا رادَّ لحُكمـه، وكان هـذا الملـكُ العظيـم الـذي طلبَـه لتَقويـة مملكتِـه والجهـاد في سـبيله وفَتـح البـلاد الكافـرة لتتلقَّـى نـورَ الهدايـة، فـماذا منحـه الله!؟

سـخَّر اللهُ لسـليمان الريـحَ والجـن، فـأيُّ مَلـك يقـدرُ عـلى تَسـيير الريـح؟! يأمرهـا فتَحمـل السـحابَ الممطـر لأيِّ أرض فتُصيـب بـه الـزرعَ فيكـبر ويُنبـت الثـمارَ والحبـوب؛ فتـأكل منـه الـدوابُّ والنـاس، ممـا جعـل أهـلَ مَملكتـه يعيشـون في سـعةٍ ورخـاء.. ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ (ص: ٣٦).

والشياطين تحت إمرته.. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ (ص: ٣٧)، منهم البنّاء الذي يُشيد المساجدَ والبيوت وأحواضَ المياه وغيرها من المباني النافعة، ومنهم الغوّاص الذي يطوف البحارَ والمحيطات ليأتيه بكنوزِها وخَباياها من اللؤلؤ وغيره، وبينهم الذي تخصَّص في صناعة التُّحف الجميلة (التماثيل) والقُدور الضخمة.. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ (سبأ: ١٣)، وزادَه من كنوز الأرض ومَعادنها ففجَّر له عينًا من النُّحاس المُذابِ ليَستخدمها في البناء والصناعة، واتَّصف أداءُ الجن بالانضباط والنظام وطاعةِ أوامر سليمان عليه السلام، فكان عنوانُ المملكة العملَ بحَزم وجدّ، فإن زاغَ أدْهمٌ عن أمرِه تلقَّى العذابَ الشديد.. ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ (سبأ: ١٢).

ولم يَنتهِ مُلك سليمان عليه السلام عند البَشر والجنّ والريح وعين القِطر؛ بل امتدَّ إلى مَملكة الحيوان والطير، وقبل قليلٍ رأينا استعراضَ الخيل أمام نبيِّ الله، كما خَضعتِ الطير له وأطاعت أوامرَه، وكانت له جندًا مطيعًا، يَفهمها وتَفهمه، سنَرى الطيرَ والخيل في عَرضها جميعًا مُسخَّرين له يأتمرونَ بأمره، ويَفهم لغتَهم.. ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل: ١٦).

كان هذا هو الفضلَ المُبين مِن الله على سليمان، كان عبدًا دعا الله صادقًا بمُلكٍ لا ينبغي لأحدٍ من بَعده، فوسَّع ملكَه وعظَّمه، عبدًا سأله وهو في لحظةِ انكسار، عندما خابَ ظنُّه ورُزِق بنصفِ صَبي، بَعدما كان يأملُ في إنجابِ الفرسان الشجعان، فأنابَ إلى مولاه، وناجاه وطلبَ منه الأغلى والأنفَس؛ فأعطاه فوقَ تَخيله وتَخيُّل البشر، جعلَ الدنيا كلها تحتَ قدمه،

يأمر فيُطاع من الجنِّ والطير والريح، هذا بخلاف رعيتِه من الإنس.

هذا هو الدرسُ الثَّمين الذي علينا تعلمُه من دعاء سليمان: كنْ طمّاعًا في كرم الله، ولا تَقنعْ بالقليل عندما تَسأله، عنده الكثيرُ فادْعُه يُعطك.

﴿اعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ لقد وهبَ اللهُ داود وسليمان ملكًا عظيمًا، وأمرهما أن يَشكرَا هذه النِّعمة، شكرًا ليس باللسان؛ شكرًا بالعمل.. {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا}، فشكرَ داود وسليمان بالعَمل الجادّ وبتَقوية وتَوسيع المملكة مما يجرُّ الخيرَ على الناس، شكرُ النعمة باستخدامها فيما يَنفع الإنسان، وهذا هو ما يَحتاجه المجتمع، فيَشكر الغنيُّ بالتَّوسعَة على الفقير، ويشكرُ الطبيبُ بعلاج المرضى، ابحثْ عن نعمِه عليك وأدِّ شكرَها!

يأمُر سليمان عليه السلام فيحشد جندَه من الجنِّ والإنس والطير، ربَّما لفَتح إحدى البلاد أو لإجراءِ تَدريب روتينيٍّ على القتال، تقدَّم جيشَه العَرَمْرَم[1] وسارَ بهم. كان الجندُ في غاية النِّظام والانضباط، حيث لا يتقدَّم أو يتخلَّف أحدٌ عن موقعِه الذي يجب أن يكونَ فيه. النظامُ والجدية أكثرُ ما امْتَازَ به سليمان، ولا يَخفى علينا صعوبةُ تَحقيق ذلك مع وجود تَباين كبيرٍ في مكوِّنات الجيش، فكيف يكون التنسيقُ بين الجنِّ والطير والإنس، وبخاصَّة مع الأعداد الكبيرة للجنود، ولكن مع الجهدِ الكبير وكثرة التَّدريب، وفوقَ ذلك معونةُ الله؛ تحركَ الجيش في سلاسةٍ ونظام عَجيبيْن.. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النمل: ١٧). يُعلمنا سليمان عليه السلام أنَّ النظامَ من الإيمان، فالصلاةُ لا تتمُّ إلا إذا استوتِ الصفوف، ولا تصحُّ صلاةُ الفرد الفَوضوي الذي

(١) جيش عَرَمْرَم: الشديد وكثير العدد.

يسبقُ الإمام مُتعمِّدًا، أما ما يَحدث في شوارعنا وأسواقِنا وأماكن عملنا من هَرْجٍ ومَرْج وسباقٍ مَحموم على مَن يتخطَّى الصفَّ أو يمرُّ أولًا أو يُنهي معاملتَه قبل الآخرين بدون حقٍّ؛ فليس من شيَم المؤمنين.

وبينَما يسير الجندُ بخطواتٍ عسكرية ثابتة واثقة تكاد تُزلزل الأرضَ من تحتهم، إذا بسليمان يَسمع صوتَ نملة ضعيفٍ يَخرج من وادي النمل، تحذِّر باقي النَّمل من الدَّهس تحت أقدام جيش سليمان دون أن يَشعروا بوجودهم.. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ (النمل: ١٨).

لكنَّ الله ﷻ أسْمعَ سليمان عليه السلام صوتَ النَّملة، فتبسَّم من قولها وفَصاحتها وحكمتها وحبِّها ونُصحها ورعايتها لقومِها. لله درُّك أيتها النملة! لم تَكتفِ بتَحذير النَّمل من خَطر الهلاك بسبب الجندِ فقط؛ بل أرشدَتهم إلى سبيلِ النجاة وهو الإسراعُ للدخول في بيوت النمل العَميقة، ثمَّ إنها التَمَست لجند سليمان العذْرَ حين قالت: وهُم لا يشعرون، فهي حَسنة النيَّة وفَطِنة، فهؤلاء جنودُ الحق وليسوا بُغاةً غاشمين يحرقون الأخضرَ واليابس.

ضربتْ هذه النملةُ الصغيرة المثلَ لنا في الوفاء والولاء لأهلنا وبلادنا، فلم تهربْ لتَنجوَ بنفسِها وتَترك الآخرين لمصيرهم المحْتوم، وإنما وقفتْ تُنادي فيهم لتُنبِّههم، فلا قيمةَ لحياتها إنْ هلكَ أهلها، فهل نحن بهذا الرُّقي! أخبَرنا رسولُ الله ﷺ عن فَضل إماطةِ الأذى عنِ الطريق أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجلٌ يمشي بطريق، وجدَ غصنَ شَوك على الطريق، فأخذَه، فشكرَ الله له، فغفرَ له [1] شكرَ اللهُ للرجل

(١) صحيح البخاري: ٢٤٧٢.

وغفرَ له لأنه أزالَ الأذى عن طريق المارَّة. كنْ إيجابيًّا وكفَّ الضررَ عن الجيران والأصدقاء، واحتسبِ الأجرَ عند الله، ولا تكن أقلَّ من النَّملة.

أعجَبني منهجُ النَّملة الإيجابي في التعامل مع الأزمات، لم تُولْول ولم تَنشرِ الفزعَ والخوف بين جماهير النَّمل، وإنما دلَّتْ على الحل، فأمرتْهم بالدخول إلى مساكنهم بعيدًا عن مَسار الجند، وهو أمرٌ في غايةِ الروعة لو طبَّقناه في حياتنا، نمضي ساعاتٍ في التكلم عن المشاكلِ والسلبيات، ولا نحاول إيجادَ حلول لمشاكلنا وأزماتنا، ولو وجَّهنا جهودَنا إلى الحلِّ لوَجدناه بين أيدينا.

لم تكنِ النملةُ من أصحاب نظريةِ المؤامرة، لم تعتقدْ بأنَّ هناك مؤامرةً كَونية على النمل، أو أنَّ سليمان وجندَه لهم مخططاتٌ عدائية للقضاءِ على فَصيل النمل، أو أنَّ لهم أطماعًا في وادي النمل الذي يَسكنونه، أو حتى إنهم جندٌ مُهملون ولا يراعون الحشراتِ عند تحرُّكهم؛ إنما اعتذرتْ نيابةً عن جيش سليمان والتَمَست لهم العذرَ بأنهم لا يشعرون بوجودِهم أثناء تحركاتهم العسكرية الجدِّيَّة. فما لنا لا نلتمسُ الأعذارَ لإخواننا ونظنُّ فيهم الظنون، فهذا تعمَّدَ ألّا يُحيّيني، وذاك تَجاهلني في المجلس، وهذه لم تَدعني إلى عرسِ ابنتها، ربما لم يتعمَّدوا إيذاءك ووقعَ الخطأ بلا عَمد، فلا تَتسرَّع في حُكمِك وأحْسِنِ الظَّن.

كان مجتمعُ النمل يناظر مجتمعَ سليمان عليه السلام، فكلٌّ منهما يجتهد في عمله وموقِعه، لقد كان لكلِّ فردٍ في مملكة سليمان دورٌ يقوم بإتقانٍ وجديَّة، لا فرقَ بين طير وجانٍّ وإنس في تلك الدولة الجادَّة المُجدَّة، وهو شأنُ مملكة النَّمل الدَّؤوبة التي لا تعرف الراحةَ أو الملل أو الفَوضى أو الأنانية، فما كان من جيشِ سليمان إلا أن قدَّر تلك الأمةَ الصغيرة بحجمِها، الكبيرة بعَملها وإخلاصها وتَماسكها وتعاونِها، فابتعدَ عن مَسار تواجدها.

تبسَّم سليمان عليه السلام ضاحكًا من نصيحةِ النملة لإخوانها، وما يضيرُ سليمان أعظمَ ملوك الأرض إن تبسَّم وضحكَ لقَول نملة! ما ضاعت هيبتُه وسط جندِه، وما وقعتِ السماءُ على الأرض. نخطئ حين نَعتقد أنَّ الضبطَ والرَّبط والنظام يحتاجون إلى وجهٍ متجهِّم لا تَنفرج أساريرُه، فالبسمةُ صدقةٌ في وجه مرؤوسيك وتلاميذِك وأبنائك، وكونُك قائدًا لهم لا يعني أنْ تُعاملهم بخشونةٍ زائدة، فالقليلُ من الهَشاشة والبَشاشة والمُزاح لا بأسَ به، واحذرْ أن تبسط وجهك لَمن هو أعلى منك فقط، فإنَّ سليمان ابتسمَ وضَحك من قول نَملة.

توجَّه سليمان عليه السلام إلى ربِّه بالدعاء بأن يُلهمه شكرَه على نعمِه التي أغدقها عليه وعلى والديْه، كما دعا بأن يُلهمه العملَ الصالح الذي يرضَى اللهُ عنه. إنَّ مشاغلَ المُلك كثيرة لا تعدُّ ولا تُحصى؛ لذلك سليمان تمنَّى أن يهديه اللهُ إلى الشكر، فقد شَغله من قبْل مشهدُ الجياد عنِ الصلاة، ثمَّ ختمَ دُعاءه بأن يُدخله برحمته في عباده الصالحين.. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (النمل: ١٩).

كلَّما شعرَ سليمان عليه السلام بكرم الله عليه أسرعَ بالشُّكر على المُنعم، فالعبدُ يحمد ربَّه عند كلِّ نعمة؛ بعدَ الطعام والشراب، وعندَ الملبَس الجديد، وحينما يتزوَّج، وعندما يُرزَق بالطفل، وعند الشفاءِ من المرض، هو في مَعيَّة الله شاكرٌ لأنعُمِه.

سألَ سليمان عليه السلام ربَّه أن يوزِعَه شكرَه، فالعبادات- ومنها ذكر الله- تَحتاج إلى مَعونة المولى (عز وجل)، فلولا هدايتُه ما اهتَدَينا إلى الصلاة والصيام وعَمل الصالحات.

ما أجملَ الانكسارَ بين يدي الله، سليمان عليه السلام أكبرُ ملوك الأرض يَدعو ربه أن يُدخله برحمتِه في عباده الصالحين، فهو يرى أنَّ سبيلَ النَّجاة الوحيد هو رحمةُ الله، فليس بعَمله ولا بجهاده ولا بعِبادته، وإنما برحمتِه، وهو ما قرَّره نبيُّنا الكريم حينما قال: "لن يدخُلَ الجنةَ أحدٌ إلا برحمةِ الله، قلنا: يا رسولَ الله، ولا أنت؟ قال: ولا أنا، إلا أن يَتغمَّدني اللهُ برحمته"[1]، فاجتهدْ في الدعاء والعمل؛ لعلَّ رحمتَه تُصيبك.

***

(١) تخريج المسند لشعيب: ١١٤٨٦.

كِتَابٌ كَرِيمٌ

نَنتقل إلى مَوضع آخرَ يُبين جديةَ الدولة السُّليمانية، فبينما الجندُ في حالة اصطفافٍ كلٌّ في موقعه، إذا بسليمان عليه السلام يتفقَّد الطيرَ فلا يجد الهدهدَ في مَوقعه، لم يفوِّتِ القائدُ الأكبر للجيش (سليمان) هذا الموقفَ؛ فمثلُ هذا التسيُّب غيرُ مسموح ولا يمكن التساهلُ معه، فإنْ تسامحَ اليومَ مع غياب الهدهد فغَدًا سيَحذو حذوَه الكثيرُ من الطير،وربَّما قلَّدهم الجانُ أو الإنس، وبهذا يتفشَّى الهَرْج والإهمال في الجيش والمملكة، وقديمًا قالوا: مَن أمِن العقوبةَ أساء الأدب، لذلك عندما سأل سليمانُ عن الهدهد ووجدَه غائبًا بلا سبب معلوم توعَّده بالقتل أو العذاب الشديد، إلا أن يكون عنده حجةٌ قوية منعته من الحضور: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾﴾(النمل:٢٠-٢١).

لنا في شدَّة سليمان عليه السلام قدوةٌ حسنة، فالشدَّة لها مواضعُها، ويجب أن تُستخدم بحَذر حتى لا تشيع اللامُبالاة والتَّقصير والتأخير، وتُصبح الفوضى هي السمةَ السائدة، ولكن قبلَ أن تُنزل عقابَك بالمُقصر، أعطِه فرصةً ليشرح أسبابَه وظروفه ودوافعه، استمعْ وأنصتْ إليه ولا تتسرَّع في الملامَة والتوبيخ والعقوبة، فربما يأتيك بسُلطانٍ مُبين (حجة قوية أو عذر قَهري)، كما فعل هدهد سليمان.

كـنْ كسُـليمان ﷺ وتفقَّـد أسرتَـك واسـأل عـن حـال كلِّ واحد، اسـتعلمْ عن حـال أبنائـك، ابـدأ بالعبـادات وخاصَّـة الصـلاة، ثـمَّ بالأخـلاق، ثـمَّ الدراسـة والأصدقـاء. أنـت راعٍ للبيـت وعليـك رعايـةُ وتفقـد أحـوال كلِّ أفـراده.

كان وعيـدُ سـليمان ﷺ للهدهـد يتَناسـب مـع شـخصيتِه الحازمـة، فسـليمان رجـلُ دولـة وقائـدٌ لجيـوش عظيمـة، وكان عليـه أن يرسـلَ تلـك الرسـالةَ لـكل جنـدي في الميـدان، كان عليـه أن يُسـمع الجميـعَ ذلـك الوعيـد القـاسي، حتـى يلـزم جنـوده بالانضبـاط. رأيناه قبـلَ قليـل يبتسـمُ ويضحـك مـن قـول النملـة، لكـن الآن الأمـر يحتـاج إلى القَسـوة المبرَّرة، تلـك القسـوة التـي تحافـظ عـلى الأرواح وتُحقـق الأهـداف، فـإنَّ التهـاون في تنفيـذ الأوامـر العسـكرية لـه عواقـبُ وَخيمـة، وكلنـا يعلـم مـا حـدثَ لجيـش المسـلمين في غـزوة أُحـد عندمـا خالـفَ الرُّمـاةُ أمـر النَّبـي ﷺ وتحرَّكـوا عـن موقعهـم، ظنًّـا منهـم أنَّ المعركـة قـد انتهـت، فاسـتغلَّ المشركـون هـذه الثغـرة، فحملـوا عـلى المسـلمين وقتَلـوا منهـم عـددًا كبـيرًا، وتسـبَّبوا في هزيمـة جيـش المسـلمين.

مـرَّت فـترةٌ مـن الزمن،ثـمَّ جـاء الهدهـدُ ليُقـدم تقريـرَه إلى سـليمان ﷺ، وكان في غايـة الـذكاء، فعـرض حجتَـه بـكلِّ فصاحـة وإقنـاعٍ جعلـت سـليمان يتناسـى أمـرَ عقابـه، فقـد قَـدِم الهدهـد ووقـف غـير بعيـد عـن مـكان سـليمان فـإنَّ القـربَ قـد يعرِّضـه للبطـش قبـل أن يقنعـه، كـما أنَّ البعـد عـن مجلـس سـليمان قـد يعنـي أنـه خائـفٌ وليـس لديـه تبريـرٌ كافٍ لغيابـه، ثـمَّ باغـت سـليمانَ بقولـه: أحطـتُّ بـما لم تُحـط بـه وجئتُـك مـن سـبإٍ بنبـإٍ يقـين. كانـتِ الكلـمات لهـا وقـعٌ شـديد عـلى آذان الجميـع، الهدهـد يقـول إنـه يعلـمُ أمـرًا لا يعلمـه سـليمان! سـليمان صاحـبُ المُلـك العظيـم لم يحـطْ بـما أحـاط بـه الهدهـد، سـليمان الـذي سـمع قـولَ النملـة وسـخر اللهُ لـه الريـح والجـنّ لا يـدري بالأمر

والهدهدُ الصغير يعلم! وكأني بالطير والإنس والجن من جند سليمان قد حبَسوا أنفاسَهم عجبًا ودهشة لمقولة الهدهد، أيُعقل أن يخاطِب سليمان بهذه النبرة! هل حانت ساعةُ الهدهد؟! لكنَّ أهلَ الحق راسخون أقوياء ولو في مواجهةِ أقوى الملوك. كان الهدهدُ صاحبَ رسالة ومبدأ، لم يكن يلعبُ ويَرتع؛ بل كان في مهمَّة استطلاع كشفتْ سرًّا عظيمًا خفيًّا عن القائدِ وباقي الجند بمَن فيهم من جنٍّ وطير آخرين. إذًا،فليس عليه أن يَخاف ويَرتعد،وبخاصَّة أنه يعلم أنه يقف بين يدي ملكٍ عادل ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾(النمل: ٢٢).

إن كنتَ علامةً في مجالك أو مُعلِّمًا مُتمرسًا لأحد العلوم، فلا تَستبعد أن يحيطَ أصغرُ تلاميذك بما لم يُحِط به علمُك، لذلك تواضَع واستمع جيدًا لمن هُم دونَك، فلعلك تتعلَّم منهم، فالهدهدُ أعلمَ سليمان بما كان يَجهله من أمر سبأ، وإمّا إن كنت تعلمُ ما لا يعرفه شيخُك أو والدُك فلا تَقلق ولا تتردد، وقفْ بأدبٍ ووضِّح لهم ما غابَ عنهم، فهذه هي سننُ الحياة.

كانت كلماتُ الهدهد وأفعاله تنمُّ عن ثقةٍ في النفس، فقد أحاطَ علمًا بما لم يُحط به سليمان، ثمَّ جاء بـ "النَّبأ اليقين" لم يكن مُجرد تَخمين، بل كان أمرًا مؤكدًا لا خلافَ عليه بشأن قبيلة سبأ التي سكنَت اليَمن.

من المؤسِف أن ترى الرجلَ يُدلي بدَلوه في الأمر الهامِّ ويُسهب فيه وهو لم يُحطْ بجوانبه ولا يعرف أبعادَه، كلُّ ما يدركه قشورٌ ربما قرأها على مواقع التواصل الاجتماعي أو سَمعها بالمقهى! فاقرأ وتعلَّم وادرسْ وحلِّل واستنتجْ قبل الخوض في أيِّ موضوعٍ جديد، وتعلَّم من هدهد سليمان، فما تكلمَ إلا عن نبأ يقين أحاطَ به من جميع جوانبه الهامَّة.

أخبرَ الهدهد أنه وجدَ قبيلة سبأ تَحكمهم امرأةٌ (ملكة)، وأنَّ هذه الملكة تَيسَّر لها كلُّ أسباب القوة والمنعة والوَفرة والغنى، ولها عرشٌ عظيم تجلس عليه وتدبِّر من فوقه أمورَ هذه المملكة الكبيرة والقوية.. ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ (النمل: ٢٣).

لم يكنْ لسليمان عليه السلام "عرشٌ عظيم" يماثل عرشَ بلقيس ملكة سبأ، على الرغم من أنَّ سليمان كان أعظمَ مُلكًا، وكانت مملكتُه أكثرَ اتِّساعًا، بالإضافة إلى تَسخير الريح والجنِّ والطير له بإذن الله، وذلك لأنَّ سليمان كان يَبتغي الدارَ الآخرة، فبنى المسجدَ الأقصى، كان همُّه نشرَ الدين والجهاد في سبيل الله، هذا هو حال أهلِ الآخرة لا يهتمّون بعروش أو مَناصب، يعرفون أنها زائلةٌ وما عندَ الله باق، يعملون ليوم مقياسُه الأعمالُ الصالحة والإخلاص، أما زيفُ المناصب وزينتُها فلا محلَّ لها في قلوبهم، فإن أصبحتَ رئيسًا في عَملك، فاعلمْ أنَّ هذا الكرسي جلس عليه الكثيرُ قبلَك وسيَرثه الكثيرُ من بعدك.

وأضافَ الهدهد أنَّ هذه القبيلة (سبأ) رغمَ قوتها وثرائها كانت تسجدُ للشمس، واستنكرَ الهدهدُ ذلك الأمر وعَزَا ذلك إلى غوايةِ الشيطان لهم وتَزيينِه الباطل والكُفرَ لهم حتى أطاعوه وأعْرضوا عن هُدى الله.. ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾ (النمل: ٢٤).

أعظمُ نِعم الله هي الهدايةُ لدينه الحق: الإسلام، فما قيمةُ الثروة العظيمة والسيارات الفارهَة والبيوت الفاخرة إذا لم تَقترن بالإيمان بالله، هذه ملكةُ سبأ لديها كلُّ مُقومات الحياة الرَّغيدة،ولها عرشٌ عظيم، ولكنها كافرةٌ

تَسجد لأحدِ الأجرام السماوية (الشمس)، أمَا تدبَّرت مَن يُدير الملكوتَ حين تغيب الشمس؟!، فلنَحمد الله على الهداية،ولنعظِّم تلك المنحة، فأنتَ مسلمٌ وهناك مليارات من البَشر ضالّون.

تعجَّب الهدهدُ من أمر سبأ، أيَسجدون للشمس من دون الله ويتَّبعون وساوسَ الشيطان، ألا يسجدوا لله الذي يُخرج المخبوءَ في السماوات والأرض ويعلم ما يُخفون وما يعلنون؟! كان الهدهدُ في دهشةٍ من أمر هؤلاء البشر، كيف يَضلّون الطريقَ إلى الله، أمَا دلَّهم عليه نزولُ المطر المستور في السماء، ألا يُنبئهم النباتُ الذي يَخرج من الأرض بعظمةِ الله، وماذا عنِ الآبار العميقة التي تخزِّن الماء فيُخرجها لهم ليَشربوا ويَزرعوا، أما أعلمَهم ذلك بالخالق الوهاب؟!

كانت مقولةُ الهدهد مُعبِّرة عن طبيعتِه كطائر، وهي بحدِّ ذاتها دليلٌ على إعجاز القرآن في اختيار كلمات الحوار بما يَتناسب مع القائل، فالطيورُ تتوقَّف حياتها وحياةُ صِغارها على الطعام، والهدهدُ يرى الله من هذه الزاويةِ فهو الذي يُخرج له الديدانَ واليَرقات المخبوءة في الأرض والصخور؛ لذلك عرفَ الهدهدُ الله بأنه: ﴿ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فلولا أنَّ الله يرزقُه الخبايا كلَّ يوم بقدَر فيَلتقطها ويأكل ويُطعم صغارَه لهَلَك ومات وانقَرَضت فصيلتُه؛ لذلك فإنَّ الطيور شديدةُ الإيمان والتوكُّل على الله، وفي الحديثِ الشريف: "لو أنَّكم كنتُم توَكلون على الله حقَّ توَكلِه لرزقتُم كما يرزقُ الطَّيرُ تغدو خماصًا وتروحُ بطانًا"[1]، كما أنَّ الهدهد يتميزُ بقدرته على اكتشافِ الماء تحت سطح الأرض، فيَعلم أنَّ الله وضع في الأرض ما يَكفي الطيورَ والحيوانات والإنسَ لتُشبع حاجاتها،

(١) صحيح الترمذي: ٢٣٤٤ .

فسبحانَه ربٌّ عليم قديرٌ رزّاق، عليمٌ بالسِّر وأخفى، قديرٌ على كلِّ شيء،يحوِّل السحابَ إلى ماء فيُحيي به الأرضَ بعد موتها ويُخرج به الزرع والثمرات، رزاق تكفَّل بقوتِ كلِّ عباده ومَخلوقاته، يَرزق النملةَ السوداء على الصخرةِ الصماء في الليلةِ الظلماء.. ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾(النمل: ٢٥).

جنسُ البَشر فقط هم مَن يَقلقون على أقواتهم وعلى مَصائرهم، لكنَّ باقي المخلوقات بفِطرتها تتوكَّل على الله بحق، لا تَشغل بالها بأزمةِ الغذاء أو الماءِ العالمية، لا تكترثُ بنسبِ التَّضخم أو حركة أسواق المال، هذه المخلوقات توقنُ أنَّ الله بيده ملكوتُ السماوات والأرض، وأنه يدبِّر الأمرَ لكلِّ العباد، وأنه لا تأخُذه سِنَة ولا نوم، وما كان ربُّك نَسيًّا لأحدٍ من خلقه، فنمْ قريرَ العين وتوكَّل عليه كما تَفعل الطير والحشراتُ والحيوانات، فرزقُك مَحفوظ لن يأخذَه غيرك، رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُّحُف.

يختمُ الهدهد نبأه اليقينَ بشهادة التوحيد.. ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ (النمل: ٢٦).

نعم،هو اللهُ الذي لا معبودَ بحقٍّ سواه،ربُّ العرش العظيم، وكأنه يُعرض بسبأ وملكتها، فأين عرشُها من عرشِ الله، فكلُّ مُلوك الدنيا وملكها لا يساوي شيئًا في مُلكه.

لما انتهى الهدهدُ من بيانه، ردَّ سليمان بأنه سيَنظر في صدقِ خَبره.. ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (النمل: ٢٧)، ونلحَظ أنه قدَّم الصدقَ عن احتمال الكذب، فحسنُ الظَّن صفةُ المؤمن ولكنه يجب ألا يكون ساذجًا، حتى لا يستغلّه المحتالون والمخادعون، فأحسنِ الظنَّ وكنْ حذرًا معًا.

مـرَّة أخـرى يُبرهـن القـرآنُ عـلى إعجـازه الروائـي، فسـليمانُ ملـكٌ يتكلـم، كلُّ كلماتـه تـدلُّ عـلى علـوِّ مَنزلتـه وعـلى سـيطرته عـلى أمـور مَملكتـه، فيقـول كـما تقـول الملـوك "سـنَنظر" وليـس "سـأنْظر" كـما أنـه تأنَّـى في تصديـق الأمر، ولم يُظهـر دهشـتَه ويَخـرج عـن وقـار الملـوك، فقـد آتـاه الحكمـة.

وهكـذا نـرى نبـيَّ الله سـليمان- وهـو العاقـلُ الحكيـم- لا يتسـرَّع في تصديق الهدهـد أو تكذيبـه، ولا يخرجـه النبـأ العظيـمُ الـذي جـاءه بـه الهدهـدُ عـن اتِّزانـه ووقـاره، وإنـما يبنـي أحكامَـه عـلى مـا سيُسـفر عنـه تحقُّقُـه مـن صـدق خـبرِه أو كذبـه. وهـذا هـو اللائـقُ بشـأن النبـيِّ الكريـم سـليمان، الـذي آتـاه الله- تبـاركَ وتعالى- النبـوةَ والملـك والحِكمـة[1].

القفـزُ بالاسـتنتاجات والتعليـق الفَـوري عـلى الأحـداث، هـي سـمةٌ غالبـة في الأجيـال الحديثـة، يكفـي بضـعُ دقائـق عـلى نَـشر خـبرٍ عـلى أحـد وسـائل التواصـل الاجتماعـي، لتُفاجـأ بمَلايـين التعليقـات، لا أحـد يكـترث لمصْداقيـة الخـبر، لا أحـد يـتروَّى، يكتـب وربـما يسـبُّ ويَشـتم وقـد يتَّخـذ قـرارًا عاجـلًا، ثـمَّ يكتشـف زيـفَ الموضـوع، أو سـوءَ الفَهـم، ليتَنـا نتعلـم مـن سـليمان عليه السلام الحكمـة، فنقـول (سـنَنظر أصدقـتَ أم كنـتَ مـن الكاذبين) لـكلِّ منشـور،ولكلِّ خـبرٍ نسـمعه.

قـررَ سـليمان عليه السلام بعـد تحقُّقـه مـن روايـة الهدهـد بشـأن سـبأ، أن يُرسـل إليهـم بكتـاب، وأوكَل مهمـةَ توصيـل كتابِـه إلى الهدهـد، لقـد أصبـح الهدهـدُ محـلَّ ثقـة ومؤتمنًـا عـلى كتـابِ نبـيِّ الله، وهـذا أفضـلُ تكريـم لـه بعـد الشَّـك الـذي نالـه. كان الأمـرُ أن يذهـب بالكتـاب ثـمَّ يتـوارى لـيرى ردَّة فِعـل سـبأ وملكتهـا، وبالفعـل تمكـن الهدهـدُ مـن إنجـاز المهمَّـة ووصـلَ إلى مَجلـس الملكـة

(١) التفسير الوسيط.

بلقيس وألقى إليها الكتاب.. ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾(النمل:٢٨).

لم يكن تكليفُ الهدهد أمرًا هيِّنًا، فالمسافة بعيدةٌ تقدَّر بآلاف الكيلومترات، ثمَّ إنَّ دخولَ مجلس حكم الملكة وإلقاءَ الكتاب محفوفٌ بالمخاطر، ولكن مَملكة سليمان تَحترم وتقدِّس العمل، ولا تَعرف الاسترخاءَ والدَّعة، والهدهدُ يَعرف أنه جنديٌّ وعليه أداءُ واجبه المقدس.

تلقَّت بلقيس الكتابَ ونادتْ على الملأ أصحابَ الرأي والمشورة، صفوةَ مجتمع سبأ.. ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (النمل: ٢٩)،وصفَت الكتابَ بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم، والأسلوب البديع، والتَّوجيه الحسن، ولجَمال هَيئته، وعجيبِ أمره[1]. ثمَّ قرأت ما فيه.. ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل: ٣٠-٣١).

اشتمل خطابُ سليمان على أدبِ النبوَّة وحكمة الملوك، ففي البداية يعرفُها بنفسه (المُرسل)، ثمَّ يبدأ بالتَّسمية باسْم الله الرحمن الرحيم، هذا الاستهلالُ له مَدلولاته التي لم تغبْ عن بلقيس، فلم يسبق اسمَه بأيِّ لقب، لم يقلْ كباقي الملوك "جلالة الملك المعظَّم سليمان صاحب السلطان العظيم الذي تجري الريحُ بأمره، وتعمل الجنُّ بين يديه والطير تَنصاع لأمره"، وذلك لأنه نبيٌّ يحبُّ التواضع،ويعلم أنه عبدٌ لله لا يَجوز له التَّكبر، ثمَّ الاسْتفْتاح بـ الله الرحمن الرحيم تُبيِّن أنه رسولٌ من ربٍّ رحيم، لم يأتِ لسَفك الدماء والإفسادِ في الأرض وسَلب الثروات؛ إنما جاء لنَشر الرحمة في الأرض.

(١) التفسير الوسيط.

عندما تُفاتح صديقًا في موضوعٍ حرجٍ احرصْ على المقدمة والاستهلال الطيب، أعْلمه أنه عزيزٌ عليك،وأنك تحبُّ الخيرَ له كما تحبُّه لنفسك، هذه الكلماتُ تفتح القلوبَ قبل العقول.

كانت كلماتُ كتاب سليمان قليلةَ العدد شديدةَ الوضوح وهي: ألا تَتكبروا عليَّ وأتوني مسلمين لله، ففيها نهيٌ عن التكبر وعن عبادةِ الشمس التي كانوا عليها،وفيها أمرٌ بسرعة التوبة والمجيء إليه مسلمين موحِّدين لله عابدين.

جميلٌ أن نتعلَّم الإيجازَ في القول من سليمان عليه السلام، فكثيرُ الكلام يُنسي بعضُه بعضًا، وقد كانت كتبُ رسول الله لِهرقل وكِسرى والمقوْقس مُختَصَرة وواضحَة، أما الزيادةُ غير المبرَّرة في الرسائل الإلكترونية وفي الاجتماعات فلا طائلَ منها.

لقد أمرهم سليمان عليه السلام بالإيمان بصيغة المسيطر القوي حين بلغ عن ربه وكانت نبرة الهيمنة والحزم : ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، بينما استخدم صيغة التواضع عند الإشارة لنفسه :﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾، فالمهادنةُ لا تكون في دينِ الله، عندما يُعرض عليك خمرٌ من أجنبيٍّ لا تقلْ إني لا أحبه، وقلْ إنه حرامٌ ولا يجوز تناوله، فلا تُجامل في الدين وكنْ واضحًا قويًّا، فدينُك أعزُّ ما لديك وليس فيه إلا ما يعزُّك وتَفخر به.

نادتِ الملكة على حاشيتها تُخبرهم بالأمر الجَلل، قرأتِ الكتابَ عليهم، وطلبَت المشورةَ منهم، قالت مُشجِّعة لهم، إنها لم تكن لتَقطع أمرًا أو تتَّخذ قرارًا دون الرجوعِ إليهم، وطالبَتهم بالنُّصح.. ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ (النمل: ٣٢). وفي قولها هذا

دليلٌ على حسن سياستها، ورجاحَة عقلها، حيث جَمعت رءوس مَملكتها، واستشارتهم في أمرها، وأعْلَمتهم أنَّ هذه عادة مطَّردة عندها،وبذلك طابَت نفوسهم، وزادت ثقتُهم فيها"[1].

والشورى هي أحدُ أسس الحُكم الرشيد، وقد وصفَ اللهُ بها عباده المُتقين، بل وسمَّى إحدى سور قرآنه بها ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الشورى: ٣٨). وللمَشورة العديدُ من المزايا، منها أنها تدلُّ القائد على أكثرَ من رأي،ومِن أكثر من مَنظور، فلكلِّ فردٍ ممن يشيرون تجاربُه وعِلمه، وبذلك يَجتمع لدى مُتَّخذ القرار العديدُ من الآراء المتنوعة ذات الخلفيات المتعدِّدة، كما أنها تُشعر الفريقَ بأنَّ القرار هو قرارٌ جَماعي فيكون الجميعُ ملتزمين به مُدافعين عنه، مما يشدِّد اللُّحمة ويعظِّم روحَ الفريق، أما الاستبدادُ بالرأي فليس من طبيعةِ المؤمن، وقد علَّمتنا بلقيس أنَّ المشورةَ تكون من ذوي الخبرة والعقل، فلا تسألِ النجار أو الطبيبَ مثلًا عن رأيه في الاستثمار بسوق المال، فهذا ليس مجالُه، ووجِّه استشارتك للقادرين على الإفادة.

بدتِ الملكةُ بلقيس في غاية الحيرة، لذلك طلبَت مشورةَ الملأ، لكنهم ردّوا إليها الكرةَ في اتخاذ القرار، فكانوا أجبنَ من أن يَحسموا الأمرَ بين يديها، أو شَعروا بأنَّ ملكتهم أقدرُ وأحكمُ منهم، فردّوا بأنهم أصحابُ قوة في العددِ والعَتاد والأجسام،وأنهم عند الحرب شُجعان لا يهابون عدوَّهم، ثمَّ فوَّضوها لما تراه في هذا الأمر، ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (النمل: ٣٣).

(١) التفسير الوسيط.

كان حاشيةُ سبأ مُحنَّكة سياسيًّا، فبَيَّنوا للمَلكة قوتَهم وصلابتهم وعدمَ خوفهم من خوض الحرب، وهذا الجواب الذي يتمنّاه أيُّ ملك من حاشيته، فإنْ أردتِّ الحرب ضدَّ سليمان فنحن معك، ومع ذلك لم يصرِّحوا بهذا، وتركوا المجالَ للملكة تقرر ما تَراه مناسبًا، وهذا ما يحدث حتى يومنا هذا، فعند عرض الحلول المقترحة على الملوك والرؤساء والوزراء، يُتْبعون ذلك بعبارة "والأمرُ لجلالتكم أو فخامتكم أو مَعاليكم".

بعدَ إعادة الكرة إلى الملكة، بدأت قرارَها بالتَّمهيد له كعادةِ الملوك والقادة، فبيَّنت أن الملوك إذا دخلوا قريةً قلَبوا حالها، ونَكَّلوا بالنُّبلاء والأشراف وجعلوهم أذلَّة، وذلك ليَضمنوا طاعة الشعب المنهزم وعدم قيام حركاتِ تمرُّد ضدهم، فالشرفاءُ أدلة المجتمع، فإن خَضعوا واستسلموا قلَّدتهم باقي القبيلة، وكانت بذلك تَشحذ همةَ الملأ حولها، فإن حدثَ غزو سيُطيحون بكامل النظام الحاكم وليس بي وحدي (الملكة) وسيَنال الجميعُ حصتَه من المذلَّة والعار، واستطاعت بذلك أن توحِّد الصفَّ وتزيل أيَّ خلافات مع أو بين الملأ، ففي وقتِ المعركة الأمةُ كلها على قلب رجلٍ واحد.. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾(النمل: ٣٤).

إذا دخلتَ على مجلسٍ فاحترمْ كبيره، وإذا قابلتَ أحدَ عُمالك أو مرؤوسيك برفقةِ أسرته فلا تَتعالَ عليه أمامَ زوجته وأولاده، فهو بينَهم ملكٌ وقائد وكبير، لا تكُن من أهل "جَعلوا أعزةً أهلها أذلة"، فذلك ليس من أخلاقِنا، وهذا ما بيَّنه لنا رسولُ الرحمة والإنسانية والخُلق العظيم في الحديث: "ليس منّا مَن لم يرحَم صغيرَنا ولم يعرفْ شرفَ كبيرنا"[1]، فوقِّر كبيرَ القوم وأعْطِه ما يستحقُّ من الاحترام والتبجيل.

(١) سنن الترمذي: ١٩٢٠.

كانت بلقيس ملكةً حكيمة فلم تَنجذب إلى فكرةِ الحرب مع سليمان، ولعلَّها سمعت بقوتِه وتَسخير الجن والطَّير والريح له، فمثلُ هذا الملك ملء السَّمع والبصر، فقرَّرت أن تبعث ببالونِ اختبار حتى تتعرف على هذا الملك وجيشِه، هل هو نبيٌّ جاء ليُصلح الأرض ويَنشر الرحمة والمحبة أم أنه ملكٌ طامع في خيرات بلادها.

تفتَّق ذهنُ الملكة إلى إرسال هديةٍ عظيمة إلى سليمان عليه السلام لجسِّ نبضِه وكَشف شخصيته وجَمع المعلومات عن سليمان ومَملكته، فإن أعجبَته الهدايا النفيسة فهو مِن أهل الدنيا والزينة، وبالتالي يمكن التفاوضُ معه مقابلَ المال والهدايا، وأما إن رفضَها ولم يلتفتْ إليها فهو رسولٌ يبتغي وجهَ الله. ثمَّ إنَّ هدية سبأ سيَحملها عددٌ من الرسل، وهؤلاء الرسلُ سوف يكونون في مهمَّة استطلاعية لمملكة سبأ؛ هل هم أقوياء بالفِعل؟ هل لديهم أسلحةٌ متطورة؟ كم عددُ مقاتليهم؟ كلُّ هذه الأهداف كانت مُستَترة في هدية بلقيس لسليمان، بالإضافة إلى رسالةٍ موجَّهة إلى سليمان وهي أننا- سبأ- نودُّ السلامَ معكم ولا نفضِّل الحرب، وأننا دولةٌ غنية يُمكنها التضحيةُ بالمال وغالي الهدايا للحَيلولة دون الحرب، فيمكنكم الحصولُ على بعض من خيراتِ بلادنا دون قتالٍ واحتلالِ أراضينا.. ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (النمل: ٣٥).

ظهرَ من فكرة الهدية مدى حكمةِ بلقيس، فهي قائد مُحنَّك سياسيًّا، تتأنَّى وتأخذ وقتًا كافيًا قبل التحرك، وتُفضل الحلولَ الدبلوماسية عن العسكرية. ولعلها شعرتْ أنَّ مجلسها مُخترَق أمنيًّا، فهناك مَن يستطيع الوصولَ إليها في عُقر دارها، ويجوز أنه يَنقل أخبارها إلى سليمان، فتحفَّظت وأسمعت ذلك الجاسوسَ ما أرادت أن يصلَ لمسْمَع عدوِّها

(سليمان)، فقد قال الملأ إنهم أقوياء وفي أهْبَة الاستعداد للحرب، لكنها تفضِّل السلمَ ولا تُمانع في منح الهدايا مُقابله، وهذا ما يسمَّى في عرف السياسة الرسالة ذات المضمونين، أو استخدام أسلوب الجزرة والعصا.

كانت بلقيس ملكةً حكيمة أرادت أن تجنِّب بلدَها شرَّ الحرب فأرسلت بهدية لسليمان عليه السلام. الجميع يستطيع القتال، لكنَّ القِلة المميزة تجيد صنعَ السلام، أغلبُ الخلافات مع الزملاء والجيران يمكن أن تحلها ابتسامةٌ وبضعُ كلمات طيبة. لا تجعل الخصامَ والعِراك والمحاكم خياراتَك المفضَّلة، ربما هدية صغيرة تَكفي لإنهاء خصومةٍ امتدَّت عشرات السنين.

هيَّأت بلقيس الهدايا القيمةَ وأرسلتْ بها رسلَها إلى سليمان عليه السلام، ووصلتِ الرسلُ مجلسَ سليمان عليه السلام، وما أن رأى سليمان هداياهم حتى غَضب، وقال لهم مُستنكرًا: أتمدّونني بالأموال لتُثنوني عنكم؟ فما أعطاني اللهُ من النبوَّة والملك والمال خيرٌ مما أعطاكم، بل أنتم الذين تفرحون بما يُهْدَى إليكم من حُطام الدنيا[1]. الأنبياءُ يروْن الدنيا بعَين الاستصغار، يعلمون أنَّ كلَّ ما فيها لا يساوي عند الله جناحَ بعوضة، همتُهم عاليةٌ وغايتهم رضا الله وجنتُه؛ لذلك فإنهم أجودُ الناس،يحبّون إنفاقَ ما في أيديهم ولا يكترثون بالادّخار.

(سأل رجلٌ الإمامَ عليًّا بن أبي طالب- كرَّم اللهُ وجهه-: أريد أن أعرف؛ هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ قال الإمام عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: الجوابُ عندَك أنتَ لا عندي، انظر إذا دخل عليك مَن يعطيك، ودخلَ عليك مَن يَطلب منك، أيّهما ترحِّب به وتقابله ببَشاشة، أيّهما تُحب؟ إن كنتَ تحبُّ مَن يأخذ منك فأنتَ من أهل الآخرة، وإن

(١) المختصر في التفسير.

كنتَ تحبُّ مَن يعطيك فأنتَ من أهل الدنيا؛ لأنَّ مَن يأخذ منك يحملُ حسناتِك إلى الآخرة، وأما مَن يعطيك فيزيدُك من الدنيا ولا يعطي آخرتَك شيئًا[1]). ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾ (النمل: ٣٦).

بعثتْ بلقيس بهديةٍ ثَمينة لكنْ سليمان عليه السلام أنكرَ عليها ذلك، وقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾، لقد أدرك أنها نوعٌ من الرّشوة المالية، حتى لو سمّوها "هدية"، وقد ابْتُلينا بتَغيير أسماء المُحرمات حتى تكون أكثر قبولًا وأقلَّ استنكارًا، فصارتِ الرّشوة "هدية" و"إكرامية" و"محبة".

قال سليمان عليه السلام لرُسل بلقيس ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ ولم يقلْ مُفاخرًا على مِنوال صاحب الجنتين: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾، فالله مُقسِّم الأرزاق بين الناس كيفَما شاء، وقد أعطاه أكثرَ ممّا أعطاهم لحكمةٍ يَعلمها، وليس ذلك لعلمِه ومَهارته وتفوُّقه؛ وإنما بفَضل من الله، وهو بذلك يذكر نفسَه ويعلم غيرَه الشكرَ للوهّاب، كما يحفِّزهم على الإيمان، فإنَّ الإيمان لن يَجعلكم فقراء، بل على العكس فإنَّ الشّاكرين مَوعودون بالزيادة والنَّماء والبركة.. ﴿رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾.

انتشرَ بين بعض الناس التَّلذذُ بكثرة الشكوى وتَعديد المصائب، مما يَنشر جوًّا من السلبية والكآبة، هم في بَحْبوحة من العيش وبصحَّةٍ لكنهم يدَّعون الفقر والمرضَ والبؤس، يحسبون أنَّ ذلك يُبعد عنهم شرَّ الطامعين والحاسدين، ولا يعرفون أنَّ ذلك نذيرُ شؤم لهم. على المؤمن التحدثُ عن نِعم الله وفضله عليه ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ (الضحى: ١١)، فالله يحبُّ أن يرى أثرَ نِعمته على عبده في مأكله ومَشربه،وفي جَميع هيئته، كما

(١) قصص الصحابة والصالحين، للشيخ: محمد متولى الشعراوي، ص ٥٦.

أنَّ التكلم بإيجابية ورضًى له أثرٌ طيبٌ على نفسية الفرد والجماعة، فعوِّد نفسَك على ذكرِ آلاءَ الله سرًّا وجَهرًا، ولكن بلا فَخر أو استعلاء، هكذا فعلَ سليمان عليه السلام حين قال: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

بعدما رفضَ سليمان عليه السلام هديةَ بلقيس وأعلنَ استنكاره لها، وجَّه رسالة تهديدٍ ووعيدٍ شديدةِ اللهجة إلى رسولِ سبأ، فأمرَه أن يعودَ أدراجَه،وأعربَ له أنه عازمٌ على غَزو مَملكتهم بجنود أقوياء لا يستطيعون مواجهتَها، ولسوف يُخرجهم من بلدِهم أذلةً مَهزومين، وذلك إن لم يَستدركوا خطأهم ويأتوه مُسلمين..﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾ (النمل: ٣٧).

كشفَ سليمان عليه السلام لرسولِ الملكة بلقيس أنَّ موضوعَ الإسلام ليس قابلًا للنقاش أو التَّفاوض، فإما الإيمانُ والتوحيد سِلمًا أو الحربُ والفتح، وهو ما يُبرهن على أنه نبيٌّ يريد أن يبلغ رسالتَه لسبأ ولا يبحث عن ثرواتِها. كان حازمًا وصارمًا لم يكتبْ كتابًا آخر يَشكرها على الهديَّة القيمة وينمِّق كلماته، إنما أبلغ رسولَ بلقيس أنه قادمٌ إليهم بالجيوش، هو رجلُ أفعالٍ صادقٌ في عزمه، الدبلوماسية وإرسال واستقبال الوفود والجلوس إلى طاولةِ المفاوضات والوصول لحلول وسط؛ ليست طريقته أو أسلوبه!

يدَّعي بعضُ المُجحفين أنَّ الإسلام انتشرَ بحدِّ السيف، لم تكن أمةُ الإسلام مُغايرةً عن باقي الأمم السابقة المؤمنَة، كان غرضُ الفتح الإسلامي إخراجَ الناس من غَياهب الكفر وظُلم الحكام، هكذا فعلَ سليمان عليه السلام حينَما خيَّر سبأ بجيوشٍ لا طاقة لهم بها أو الإيمان بالله.

عادَ وفدُ سبأ بخفَّي حُنين إلى ملكتهم، أبلَغوها عن غضبةِ سليمان عليه السلام وتهديدِه بالحرب، ولا شك أنهم أبلَغوها عن قوة جيشِه ورَخاء مملكته. وصلتِ الرسالةُ واضحة لبلقيس، الإذعان أو الحرب، وخيار القتال لن يُجدي مع هؤلاء الجند، فمَن يستطع محاربةَ الإنس والجنّ والطير مُجتَمعين؟! فقرَّرت أن تأتي سليمان عليه السلام لتُثنيه عن فتح بلدِها عنْوَة.

وبينَما بلقيس في مَوكبها تَسير في اتِّجاه سليمان عليه السلام، قررَ أن يفاجئها لعلها تَهتدي إلى نبوَّته، لم يكن يريدها تَخضع لقوته، كان يريدُ أن يريها آيةً لتَتَيقن أنه نبيٌّ مُرسل ومؤيَّد من الإله الحقِّ ربِّ العالمين القادر القوي الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كانتِ المفاجأة هي أن تجدَ عرشَها عنده، وكان ذلك العرشُ عظيمَ الحَجم والشكل، يصعب تحريكُه بضعَ سنتيمترات، فكيف يَنتقل آلاف الكيلومترات؟!

ظنَّ سليمان عليه السلام أنَّ هذه المعجزة قادرةٌ على إقناع بلقيس، فسألَ سليمان ملأه مَن يستطيع أن يأتيه بعَرشها قبل أن يصلوا إليه.. ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (النمل: ٣٨).

كان ملأ سليمان على قدرٍ كبير من القوَّة والأمانة، وهكذا يجب أن يُحيط كلُّ امرئ نفسَه بالصحبة الصالحة الحكيمة القوية، فيَستشيرهم قبلَ اتِّخاذ القرارات الهامَّة،ويطلب عونَهم عند الحاجة، ويكون لهم هو الآخر ناصحًا مُعينًا.

ردَّ عفريتٌ من الجنّ وكان من ملأ سليمان عليه السلام أنه يستطيع إحضارَ عَرشها قبل أن ينتهي من مجلسه، وهو أمرٌ مُعجز، فالمسافةُ من اليمن للقدس تَستغرق بمَقاييس هذا الزمن عدةَ أسابيع على أقل تقدير، لكن هذا العفريت قادرٌ على أن يأتي به في بِضع ساعات، وأضافَ أنه قوي

يمكنُـه حملُـه دون أن يتعـرض للكسْر أو الخَـدش، وأمـينٌ عـلى مـا فيـه مـن الحُـليّ والنَّفائـس.. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ (النمـل: ٣٩).

عـرضَ الجنّـي قدراتِـه التـي تؤهلـه للمهمَّـة (قـوي أمـين)، فـلا بـأس في أن تتحـدثَ عـن مؤهلاتـك ومقوماتـك، حتـى يطمئـنَّ صاحـبُ الشـأن لـك ويوليـك المسئولية، والخجـلُ في مثـل هـذه المواقـف غـيرُ محمـود، لأنـه ببسـاطة قـد يـؤدّي إلى تكليـف الأقـلّ مَهـارة وخـبرة، ولا يعـدُّ هـذا نوعًـا مـن الغـرور، بـل هـي ثقـةٌ في محلّهـا، فـإن رأيـت نفسَـك قـادرًا عـلى أداء مهمَّـة مـا فتكلَّـم وقـلْ أنـا لهـا بـما لـديَّ مـن قـدرات.

قـامَ الـذي عنـدَه علـمٌ مـن الكتـاب ويقـال إنَّـه أحـدُ الصالحـين[1] مـن بنـي إسرائيل،ويعلـم اسـمَ الله الأعظـم الـذي إذا دُعـي بـه أجـاب؛ وقـال إنَّـه قـادرٌ عـلى إيصـال عـرش بلقيـس قبـل أن يرتـدَّ نظـرُ سـليمان إليـه، يمكنـه نقـلُ هـذا العـرش الضخـم الثقيـل آلالـف الكيلومـترات في لمـح البـصر. ونـرى هنـا سـباقًا في الخـير بـين جلسـاء سـليمان، كلٌّ منهـم يريـد أن يُقـدم خدماتِـه لنُـصرة الحـق، وبعـد موافقـةِ سـليمان ﷺ عـلى عـرض الأخـير إذا بـه ينظـرُ فيجـد عـرشَ بلقيـس أمامـه مسـتقرًّا. وقبـلَ أن تأخـذ سـليمان الفرحـةُ بـما سُـخِّر لـه، إذا بـه يتذكَّـر أن تلـكَ النعمـة ابتـلاء، عليـه أن يَشـكر الله عليهـا وألّا يَسـمح للعُجـب أن يسـتولي عليـه.. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (النمـل: ٤٠).

(١) قيـل هـو: آصـف بـن برخيـا، وهـو رجـلٌ مـن صُلحـاء بنـى إسرائيـل، آتـاه الله- تبـارك وتعـالى مـن لدنْـه علـمًا، وكان وزيرًا لسـليمان. التفسـير الوسـيط.

كان نبيُّ الله سليمان عليه السلام دائمَ اليقظة، وكان يعتبر كلَّ موقف يمرُّ به اختبارًا من الله، فيذكِّر نفسَه ومَن حوله بأنَّ الشكر لله واجبٌ عند كلِّ نعمة، وهذا هو حالُ المؤمن التَّقي لا يعرف الغفلة، فهو إما في ذكر أو في عملٍ يُرضي الله، وحين تَحضره المسرّات فأولُ شيء يَفعله هو السجودُ لله شكرًا، وحينما يتعرَّض للمَصائب فهو الصابر المُحتسب.

تفوَّق العبدُ الصالح (الذي عنده علمٌ من الكتاب) على عفاريت الجن. حين تتعلم كتابَ الله وتتقرب إليه بالعبادات الصادقة الخالصة، تُصبح عبدًا عالمًا ربّانيًّا، لك قدراتٌ خارقة مِصداقًا لما جاء في الحديث: "وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به،ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه"[1]. فلا أنس ولا جانّ يستطيع أن يؤذيكَ وأنت حبيبُ الرحمن، فأقبلْ عليه وكنْ من الآمنين.

أمرَ سليمانُ عليه السلام بتَغيير مَظهر العرش دون المساس بجَوهره، أراد أن يَختبر مدى ذكاء وفطنةِ وقوة ملاحظة بلقيس، فهل ستَتَعرف على كرسي الملك الذي تَجلس عليه طوالَ اليوم بعدَ التعديل.. ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ (النمل: ٤١). إنَّ التعرف على قدرات خَصمك ومدى ذكائه ونقاطِ قوته وضَعفه لأمرٌ هامّ عند المنافسة، فإن أردتَّ هزيمته اضغطْ على جوانبه الضعيفة حتى يَسقط، وتجنَّب مواجهتَه فيما هو بارعٌ فيه؛ لذلك قام سليمان بحيلةِ تَنكير العرش.

(١) صحيح البخاري: ٦٥٠٢.

وصلَ وفدُ سبأ بقيادةِ ملكتهم بلقيس مجلسَ سليمان عليه السلام، بادَرها سليمان بسؤالها عن العرش، أهكذا عرشُك؟ سألها: أهذا مثلُ عرشك؟ ولم يسألها مباشرة هل هذا عرشُك ليزيدَها ارتباكًا، وكأني بها وهي في شدَّة الحيرةِ تقول لنفسها: إنه يشبه عرشَها مع بعض الاختلافات البسيطة، فالمرأةُ بطبيعتها شديدة الملاحظة للتفاصيل، ولن تَغفل عن التغييرات في العرش، ولكن كيف لعرشها أن يأتي إلى هنا؟ هذا من المستحيلات أن يستطيعَ أحدٌ نقلَه إلى هنا بهذه السرعة، وماذا عن حَرسي وجيشي الذي يحرس العرش والمملكة! لكن بلقيس لم تُلجمها هذه الحيرةُ عنِ الرَّد على سليمان، وكان ردُّها يدلُّ على كياسَة ورَزانة، حيث قالت: كأنه هو. لم تَنفِ أو تُثبت، تكلَّمت مثلَ الدبلوماسيين، أو كما يقولون أمسكت العصا من المنتصف.

أجادتْ بلقيس ونجحَت في الاختبار وظهرَ عقلها وبصيرتُها، فعقَّب سليمان عليه السلام على ذلك بأن الله رزقه العلم والهدايةَ من قَبلها،وفوق ذلك كنّا مُسلمين لله، وكأنه يَمدحها على ذكائها ويلومُها على عدم استخدامه للاهتداءِ إلى دين الله الحق، فلا خيرَ في ذكاء أو علمٍ أو تقدُّم لم يقترن بالإيمان؛ فالرخاءُ والقوة التي كانت عليها سبأ لم تَشفع لها لكفرها و عبادة الشمس من دون الله.. ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (النمل: ٤٢).

وكنّا مُسلمين: الإسلامُ أعظمُ نعمة يَحظى به المرء، وكفى بالإسلام فَخرًا وتيهًا، فلا الشهاداتُ العليا ولا المناصبُ الرفيعة ولا الأموالُ المكدَّسة؛ توازي تلك النِّعمة، فكلُّ هذه النعم زائلة،ولن تُغني عنك شيئًا ويَبقى إيمانُك هو رأسمالك ومُرشدك إلى الجنة.

ثـمَّ يُضيـف سـليمان عليه السلام أنَّ عبـادةَ الشـمس مـن دونِ الله صدَّتهـم عـنِ الهـدى والإيـمان بـالله، وبخاصـة أنهـا كانـت مـن قـومٍ اعتـادوا الكفـرَ وتأصَّـل فيهـم.. ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾ (النمـل: ٤٣). لا يمكـن للزجاجـة المملـوءة بالمـاء أن يَدخلهـا الزيـتُ إلا بعـد أن يخـرج مـا بهـا مـن مـاء، هـذا القانـون الفيزيائـي يَصلـح لعقـول البـشر، فـإذا كنـت مُتشـبِّعًا بنظريـة مـا فلـن يسـتطيع عقلُـك الاقتنـاع بنَقيضهـا حتـى لـو كانـتِ الأخـيرة أحسـنَ مَنطقًـا وأكثـر قَبـولًا. عليـك أن تسـمعَ وأنـت مُحايـد، عليـك أن تـدعَ الأحـكامَ المُسـبَقة ومـا ورثتـه مـن أفـكارٍ باليـة، ثـمَّ تُحكِّـم عقلـك في الجديـد، وللأسـف هـذا سـببُ عـدم اهتـداء الكثـيرِ مـن النـاس.

دعـا سـليمان عليه السلام الملكـةَ بلقيـس إلى دخـول القـصر، وكانـت في انتظـار بلقيـس مفاجـأةٌ أخـرى مـن النـوع الثقيـل؛ أرضيـةُ الـصَّرح بـدت لهـا أنهـا مغمـورة بالمـاء، عليهـا أن تخـوضَ فيـه، فرفعـت بعضًـا مـن ثوبهـا الغـالي لكيْـلا يَبتـل، فكشـفَت عـن سـاقيها، فأعلمَهـا سـليمان أنـه أرضيـةٌ بلّوريـة مَصنوعـة مـن زجـاج أملـس شـفاف تحتـه مـاء. انبهـرَت بلقيـس مـن عَجائـب الله التـي رأتهـا عنـد سـليمان، ولم تَتمالـك نفسَـها مـن الدهشـة، فبمقاييـس هـذا العَـصر كان ذلـك إعجـازًا لم يخطـرْ عـلى قلـب بَـشر. أعلنَـت بلقيس أنهـا ظلمَت نفسَـها بعبـادة الشـمس، ثـمَّ جاهـرَت بإيمانهـا مـع سـليمان لله ربِّ العالمـين.. ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ (النمـل: ٤٤).

لـكلٍّ منـا شـخصيتُه التـي تَبلـورت وفقًـا لتربيـة وبيئـة وتجـاربِ كلِّ إنسـان، ولـكلِّ شـخصية مفتـاحٌ قـادر عـلى فتـح العَقـل والقلـب. كانـت بلقيـس مولَعـةً بالتُّحـف وعجائـب الصُّنـع، وصنعَـت لنفسـها عرشًـا عظيـمًا رصَّعتـه

بالجواهر والنَّفائس. كان العرشُ آية في الإبهار، فجاءها سليمان من ذلك الباب وقدَّم لها أدلةً عملية تدلُّها على عجائب صُنع الله وقدرتِه، فأيقنَت على الفور أنَّ سليمان مؤيدٌ من قِبَل إلهٍ عظيم قادر على فعل المعجزات التي لا يمكن لبَشر صنعُها، فما كان إلا أن آمنَت بعد رأت عرشَها عند سليمان ثمَّ ذلك الصرح المُعجِز.

كانت بلقيس ترتدي فستانًا طويلًا عند زيارتها لسليمان، وقامت برفعِه قليلًا عندما علمت أنها ستَخوض في الماء. إنَّ ارتداءَ الثياب الساترة هي سمةُ الملكات، ولتَجعل كلُّ فتاة نفسَها ملكةً بلبْس الطويل الساتر، أما القصيرُ الكاشف فليسَ لباس المؤمنات أو الأميرات.

أشهرَت بلقيس إسلامَها بكلمات مُنتقاة بعناية فائقة، فاعترفَت بذنبها أولًا ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، لم تحاول تبرئةَ نفسها أو تعليقَ خطئها على غيرها؛ بل قالت بشجاعةِ الملوك إنها هي مَن ظلمَت نفسها.

بعد أن أبدَت بلقيس ندمَها على كفرها، أعلنت أنها آمنَت مع سليمان، وكأنها تؤكد على أنها بإيمانها أصبحَت عبدةً لله كما كان سليمان من قَبلها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾، فالإسلامُ لله لم يحوِّل حالها من عزيزةِ قومها إلى ذَليلة، فما تزال هامتُها عالية وتَضع نفسَها إلى جانب سليمان جَنبًا إلى جنب، أو ربما أرادتْ بِذكر سليمان شكرَه على أنه كان سببَ هدايتها، وأنها على منهجه في عبادة الله.

دخلَت بلقيس في دين الله وتَبعتها سبأ، فنالت أجرَها وأجر مَن تأسَّى بها، ضربت مثلًا في القيادة الرشيدة وفي قَبول الحق ولو لم تكن عليه سابقًا. أنقذت نفسَها وأهلها من ظلمات الكفر وهدتهم إلى الإيمان. خافَت

في البداية من سليمان وقالت: إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً جعلوا أعزَّة أهلها أذلة، لكن إيمانها كان سببًا في عزَّتها وعزةِ قومها، كما أنه خلدَ ذكرَها في كتاب الله، وفوقَ ذلك يقال إنَّ سليمان عليه السلام تزوجها بعد إسلامِها، فنالت بذلك خيري الدنيا والآخرة.

كانت مملكةُ سليمان في شُغل دائم، كان همُّه إصلاحَ الأرض وإقامةَ العدل ونشرَ دين الله، وظَّف جميعَ الموارد المتاحَة لديه لهذا الغرض السامي، أتعبَ نفسَه ورعيته لكي ينجز، ولم تكنِ الجنُّ في مَعزل عن ذلك، فكانت في حالةٍ من العمل الدؤوب للتَّشييد والبناء، وهو عليهم رقيب، يتابعُهم وينظر إليهم ويجازي كلَّ مَن يقصر أو يُهمل في عمله، وبينما هو يتابع العملَ متَّكئًا على عصاه إذا به يخرُّ ميتًا، ليَكتشف الناس أنَّه قد مات منذُ فترة (قيلَ سنة)، وأنَّ الجن لم تعلمْ بذلك،وظلَّت خائفة من بطشه وتعمل بكدٍّ وتظنُّه حيًّا، ولولا دابةُ الأرض- وهي حشرة الأرضة- التي أكلَت عصاه التي كان يستندُ عليها؛ لما سقط وما عرفت الجنُّ بنبأ موته.. ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾(سبأ: ١٤).

الجنُّ خلقٌ من خلق الله لا يعلمون الغيبَ ولا يستطيعون الضَّرر إلا بإذنه، فلماذا نعظِّم شأنهم وننسبُ لهم القدراتِ الخارقة؟ فلو كانوا يعلمون الغيبَ لاكتشفوا موتَ سليمان، ومن قبْل رأينا قد تفوَّق العبد الصالح الذي عندَه علمٌ من الكتاب على عفريت الجن، فاللهُ وحده يعلم الغيبَ وهو القوي المَتِين، فتقرَّب إليه يَمنحك القوةَ ويُعيذك من الشرور.

رحلَ سليمان عليه السلام الذي وهبَه الله ملكًا لم يَمتلكه أحدٌ من بعده، جاءته

الدنيا بكلِّ ما فيها، فجعلها تحت قدَميه، سخَّر اللهُ له الريح غدوّها شَهر وَرَواحُها شَهر،وسخَّر الله له الجنَّ يعملون بين يديه ما يشاء، وأسالَ له عينَ القِطر (النحاس)، حكمَ الأرض وكان ملكًا لها، فلم يتكبر ولم يفسد، وإنما أصلحَ وجاهد وعَدَلَ بين أبناء شعبه. لم تَشغله النعمةُ عن المُنعم،وكان عبدًا شكورًا. كدَّ واجتهدَ وثابر، وقُبض وهو قائمٌ على عمله ولم يركنْ إلى الدَّعة والكسل. ضربَ لنا مثلًا في الحاكم الصالح، فالقِلَّة تصمد إزاء فتنة الكرسي والقوة والمُلك.

***

بينَ يدي القصة:

تجلَّى من القصة اسمُ الله "المقدم"،قال البيهقي: "المقدم والمؤخر" هو المنزّل للأشياء منازلَها، يقدِّم ما شاء ومَن شاء، ويؤخِّر ما شاء ومَن شاء[1]. فقدَّم طالوت ببَسطة العلم والجسم على باقي بني إسرائيل،وجعله مَلكًا عليهم، وقدَّم داود عليه السلام بشجاعتِه وبإتقانه الضربَ بالمقلاع على باقي جيش طالوت، وقدَّم سليمان بفهم قضيةِ الحَرث الذي نفشَت فيه الغنم، وقدَّم بلقيس- وهي امرأة- على سبأ فحَكَمتهم وصارت ملكة عليهم.

كما يتجلَّى اسمُ الله "المَالِك" ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (آل عمران: ٢٦)، فقد آتى سليمان ملكًا عظيمًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وجعلَ الأرضَ تحت حُكمه بمَن فيها من إنس وجنٍّ وطير.

اتَّضح من القصة شخصية داود؛ إنها شخصية شديدةُ الإيمان والتوكل على الله منذ الصغر، لقد حارب قائدَ العماليق جالوت شديدَ البأس بمِقلاع وحجَر، وهو ما يدلُّ أيضًا على شجاعتِه وإقدامه، ثمَّ نلمَس فيه حبَّ العمل والاجتهاد فيه، فرغمَ أنه مَلك كان يقوم بصناعةِ الدّروع للعساكر، وكان لا يأكل إلا من عملِ يده، كما أنه كثيرُ الطاعة لله، يصومُ يومًا ويُفطر يوماً، كما أنَّ الله وهبَه الحكمة وفصل الخطاب.

أمّا سليمان عليه السلام فهو الملكُ المجتهد المجاهدُ الشجاع العادل المتواضع، وقد ورثَ من أبيه حبَّه العمل وعدم ركونِه للدَّعة والترف، فهو يعمل ويكدُّ حتى الرمق الأخير، مَملكته لا تعرف التكاسلَ أو التراخي أو الفوضى،

(١) أسماء الله الحسنى تصنيفًا ومعنى، ص ٦٠٢، وعزاه للبيهقي.

جيشُه على أهْبَة الاستعداد في أيِّ وقت، وهو على رأس الأمر يتفقَّد الجيادَ والطير وجميعَ جنده، ويظهر من أحداثِ القصة حبُّه للجهاد في سبيل الله، وتَظهر عليه سماتُ الجدية والحزم في الإدارة، فهو يجازي المُقصرَ ويُنزل به أقصى العقوبة، رأينا ذلك عندما توعَّد الهدهدَ بالقتل أو العذاب الشديد إن لم يأتِه بمسوِّغ لغيابه، كما شاهَدنا صرامتَه في التعامل مع سبأ فهو لا يُساوم في دين الله، وهو مع ذلك حكيمٌ يجيد فنَّ الإقناع، وهو ما ظهرَ عندما استخدمَ حيلةً لإقناع بلقيس،وأدخلها قصرَه الممرَّد، علم أن ذلك الإبهارَ هو سبيلُ إيمانها بالله، ومع حَزمه وهَيبته فهوَ رحيم ومتواضِع؛ وقفَ للنملة وسمع كلامَها وابتسم مِن قولها، وهو كثيرُ الذكر والشُّكر لله، يتذكرُ الله عند كلِّ نعمة، ويدرك أنَّ الملك والقوة والسطوة والخيرَ هُم ابتلاءات عليه استخدامُهم في رضا الله،وهو سبيل شكرها.

وتَبرز بلقيس بشخصية الملكة الحكيمة الدبلوماسية المُحنَّكة سياسيًّا، فهي تدير شئونَ مملكتها بمشورة الملأ من حَولها، هذه الكوكبة من الحكماء وصَفوة مجتمع سبأ تشيرُ عليها في الأمور الهامة، فتَستفيد بذلك من خِبراتهم وتجاربهم وعلومِهم، كما تزيد شَعبيتها وتوطِّد علاقتها مع شعبها. حين تلقَّت كتابَ سليمان عليه السلام أشادَت به وقالت عنه كتابٌ كريم، ثمَّ طلبتِ العونَ من الملأ، وهو يدلُّ على رَجاحة عقلها. ثمَّ اهتدت إلى حلٍّ سِلمي؛ إرسال هدية، بادرت بطلبِ الصلح، وأرسلت رجالها ليأتوها بالأخبار عن سليمان ومملكته وجيشِه، عندما علمت بعَزمه على القتالِ أتَت مُسرعة لتَحقن دماءَ شعبها، وحين رأتِ الآيات آمنَت وبادرت بالاعتراف بذَنب الكفر.

***

آل عمران

الحفيدُ: أنا مُحبَط يا جدي، دعوتُ كثيرًا ولم يُستجَب لي! ربما لا أستحقُّ الإجابة!

الجدُّ يأخذُ حفيدَه في أحضانه: أنت ولدٌ صالح، وإن شاء اللهُ يَقبل الله دعاءك.

الحفيدُ: لقد انتهى الموضوع، فقد دعوتُ أن ألتحقَ بكلية الطب، وقد أعلنَت نتائجُ التنسيق، ومجموع درجاتي لا يؤهِّلني لدراسة الطب.

الجدُّ: إن كنتَ درستَ بجدٍّ ودعوتَ الله بإخلاص؛ فسوفَ يعوِّضك الله خيرًا مما تمنَّيت.

الحفيدُ: الطبُّ حلمُ حياتي، كنت أتمنى أن أكون سببًا في شفاء الناس من الأمراض والآلام، وإنقاذ أرواح الناس.

الجدُّ: إن شاءَ الله تؤجَر على نيَّتك الطيبة، وتُفيد الناس في مجال آخر، فلا تبتئس.

الحفيدُ: وهل هناك أفضلُ من الطب لإفادة الناس!؟

الجدُّ: إنما يقول اللهُ للشيء كنْ فيكون.

الحفيدُ: أنا محبَط جدًّا، ضاعَ مستقبلي وأملي في هذه الحياة.

الجدُّ: سأحكي لك قصةً من القرآن ستُحيي الأمل في قلبك وتُذهب حزنَك.

الحفيدُ: حقًّا! كلّي آذانٌ مُصغِية.

الجدُّ: إنها قصةُ زوجة عمران؛ أمّ مريم، وجدَّة المسيح عيسى عليه السلام.

وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا

شيَّد داود عليه السلام مملكةً عظيمة لبني إسرائيل، وأكملَ بعدَه سليمان عليه السلام المسيرةَ حتى خضعت كافةُ بقاع الأرض لهذه المملكة القوية. وتَحكي لنا الكتبُ السابقة أنه بعدَ موت سليمان عليه السلام دبَّ الخلاف بين بني إسرائيل وبَعدوا عن الجادَّة وآثروا مصالحَهم الدنيوية، فضَعفوا مرة أخرى، وظهر عليهم أعداؤهم. وكان أشدّ ما تَعرضوا له غزو بُختنصر الذي احتلَّ بلادهم ودمَّر بيوتهم ومعبدَهم،وساقهم أسرى وسبايا أذلةً إلى مدينة بابل، وهو ما يُعرف بالسَّبي البابلي. ثمَّ مالبثت أن سقطتْ دولةُ بابل على يد الفرس، الذين سَمحوا لبني إسرائيل بالعودة إلى بيت المقدس وبناءِ هَيكل أو معبدٍ لهم،وعيَّن عليهم حاكمًا منهم. ثمَّ جاءَ اليونان بقيادةِ الإسكندر المقدوني واستولوا على بلاد الشام وفلسطين،إلى أن جاء الرومان بعد عدَّة قرون واستولوا على هذه البلاد. وعاشَ بنو إسرائيل تحت حكم الرومان لهم بعضَ الاستقلالية[1].

كان اليهودُ قبل ميلاد المسيح عليه السلام مُنقسمين إلى عدَّة طوائف مختلفة مثل الفريسيين والسامريين والصّدوقيين وغيرهم،وكانتِ الاختلافاتُ بينهم في العقيدة شاسعة، وكفَّر بعضُهم بعضًا. واهتمّوا بشكل الدين وأهمَلوا جوهرَه، اعْتَنَوا بالشعائر مثل مُمارسة ختان الصبية والصلاة في يوم السبت وتعطيل العمل فيه، وتحرّي الطعام الحلال، وعلى الجانب الآخر استغلَّ الأغنياءُ الفقراء، وانتشرت بينهم الجريمة، وأما مَعبدُهم فتحوَّل إلى سوقٍ للبقر والغنم والحَمام، والباعة والصَّيارفة. وبذلك انقسم الناسُ بين وثنية

(١) ينظر كتاب: المسيح عيسى ابن مريم الحقيقة الكاملة، د. على محمد الصلابي.

كافرة في بلاد الرومان والإغريق، وبين يهودية مُزيَّفة في أرض فلسطين، فأظلمتِ الأرض وكانت في أحلك أوقاتها تَنتظر نورَ السماء ليبدِّد ظلماتها.

اصطفَى اللهُ آلَ عمران من بني إسرائيل ليختصَّهم بنوره، كما اصطفى آدمَ وآل نوح وآل إبراهيم من قبل بالنبوَّة، وعمران هو والدُ السيدة مريم بنت عمران.. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾. (آل عمران: ٣٣-٣٤).

والاصطفاءُ يكون للأتقياء من عباده؛ أصحابِ القلوب الطاهرة والأعمال الصالحة، وهذا الاصطفاءُ ليس مَحصورًا فقط في الأنبياء والرسل؛ فالأولياءُ والشهداء والصالحون يختارهم اللهُ بعناية لما علمَ من نقائهم وحُسن خُلقهم.

في هذا الظلام الدّامس كان أحدُ بيوت بني إسرائيل يُضيء بنور الإيمان، فلم يكن شيوعُ الباطل مبررًا لاتِّباعه، فهذه الأسرةُ الطيبة رفضت أن تُساير مجتمعَها وتخوض مع الخائضين؛ إنهم آل عمران، أسرة طيبةٌ جعلت همَّها طاعةَ الله ورضاه، انْشغلوا بالصلاة والذكر والدعاء عن زينة الدنيا وصراعاتها. هذه الأسرةُ قوامُها "عمران" إمامٌ وعالم وحَبْر، وزوجتُه الصالحة العابدة القوّامة وكان اسمها فيما ذُكر لنا "حَنَّة".

ويقال إنَّ حَنَّة قد كبرتْ في السنِّ ولم تُرزقِ الولد، فدعتِ الله فحَمَلت، فقامت تناجي ربها وتُنذر له أغلى ما تَملك: جنينها الذي لا يزال في أحشائها، ليَخدم دينَ الله في بيت المقدس. وهَبتْه بكل إخلاصٍ للدعوة إلى الله،وسألتِ الله القبول، لم تسألِ الله أن يَجعله غنيًّا أو سيدًا لقومه، وإنما تمنَّت أن يكون عبدًا لله من سَدَنة وخُدَّام بيته.

تضعُنا حَنَّة في وضعٍ حَرج حين نُقارن أنفسَنا بها، فماذا نتمنَّى لأولادنا؟ أندعو لهم أن يكونوا عبادًا صالحين طائعين لله، أم نَرجو لهم الشهاداتِ العليا والمالَ والوفير والمناصب الراقية فقط!؟ هل نُرغِّبهم بتَعلم القرآن والحديث، أم كلُّ ما يشغلنا هو تعلمُ اللغات الأجنبية وغيرها من علوم الدنيا؟

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾(آل عمران: ٣٥).

لم تكن حَنَّة لها العديدُ من الأولاد، كان هذا الجنين- فيما قيل- هو أولَ أبنائها، وكان زوجُها عمران قد ماتَ وهي حامل، وهي امرأة مُسنَّة؛ أي إنَّ هذا المولود الذي كانت تنتظره هو ابنُها الوحيد وأملُها في الدنيا وسندُها المرْجو، لكنها جادتْ به راضية ولم تَطلبه ليَرعاها ويساعدها،بل وَهَبته (محرَّرًا) لله. لله درُّك يا حَنَّة! فلا زوج لك ولا أبناء وتَهبي مولودَك الوحيد لله، ونحن عندما نُنفق لله نُفكر ونحسب ونتردَّد قبل أن نُعطي ما زادَ عن حاجاتنا! هذا اليقينُ والإيمان والإخلاص الذين ملأوا قلبَ امرأة عمران هو ما أهَّلها للاصطفاء وعلوِّ المنزلة وحُسن السِّيرة، حتى وصل خبرُها إلينا بعد أكثر من ألفي عام.

لم تلدْ حَنَّة الولدَ الذي نَذرته لله، لقد وضعَت أنثى! فاعتذرتْ إلى الله لأنَّ البنت لا تَصلح لخدمة بيت الله، فالدعوةُ تحتاج إلى رجلٍ يُخالط الناس ويَعظهم ويَخطب فيهم ويتحمَّل أذاهم، وهو ما لا يُمكن لأنثى أن تقومَ به، وبخاصَّة مع حدوث العوارض الشرعية للنساء.

سمَّت حَنَّة بنتَها "مريم" وتوجَّهت لله تدعوه، وهذا شأنُ المؤمنين في اتصال دائمٍ مع ربِّ السماوات والأرض، تارة ذكرًا وعبادة، وتارة دعاءً

وقنوتًا، وهذه المرة دعَتِ الله أن يعيذَ ابنتها الصغيرة وذريتها من الشيطان.. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ (آل عمران: ٣٦).

يقول الشيخُ الغزالي: "كانت مريم مولودًا غير متوقَّع لأمها التي نذرت ما في بطنها خَادمًا للمعبد يحرس شَعائره ويقوم على شئونه ويقود جموعَ المؤمنين، لكنها فوجئت بأنَّ الوليد المرجوَّ جاءَ أنثى، وماذا تصنع أنثى في تحقيق آمالِ أمِّها وأداءِ وظيفةٍ لا يُختار لها إلا الكمَّل من الرجال؟

ولم تكن أمُّ مريم تدري أنَّ ابنتها ستَلد إنسانًا وجيهًا في الدنيا والآخرة ومِن المقربين، وأنها ستَتولى في مَهده حمايتَه كما حمَت أمُّ موسى موسى، وكما حمَت والدةُ محمدٍ محمدًا"[1].

لم تعلم امرأةُ عمران أنَّ الله تقبَّل نذرَها، ظنًّا منها أن البنت لا يُمكنها خدمةُ دين الله، لكنه ﷻ تقبَّله قبولًا حَسنًا واستجاب لدعائها،وذلك بسبب إخلاصِها في عبادته، فسبحانَه هو السميع العليم، لقد سمع توسلَها وأجاب طلبها، وتولى هذه الطفلةَ الصغيرة لتصبح سيدةً لنساء العالمين، وتكون أمًّا لرسول الله عيسى عليه السلام مِن أولي العزم، فما أجملَ الإخلاص لله! وما أكرمَ عطاء الله! طلبت أن يكون وليدُها خادمًا في المعبَد فإذا بها تُرزق بكلِّ هذا التَّشريف والجود والعطاء من الله.

تولَّى اللهُ تعالى بعنايته مريم، وأوْكلها- بعد وفاة أبيها عمران- إلى نبي الله زكريا عليه السلام، وكان ذلك من حُسن تَدبير الله لها، حتى تنشأ في بيئةٍ إيمانية صالحة، فتَغرس فيها الأخلاقَ والفضيلة،وتتربَّى على صلاح الدين،وتتعلَّم

(١) نحوَ تفسير موضوعيٍّ لسور القرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي، دار الشروق، ص٣٤.

العلمَ النافع، حيث قامت حَنَّة بإرضاعِ مريم فترةً من الزمن، ثمَّ ذهبت بها إلى المعبد لتُسلمها إليهم، فتَنازعوا بينهم أيُّهم يَكفل مريم بنتَ إمامهم وحَبْرهم عمران ويَفوز بهذا الشرف. وطالب زكريا بكَفالتها فهو زوجُ خالتها ويقال إنه كان زوجَ أختها، بالإضافة إلى أنه نبيٌّ مصطفى من الله، لكنهم خاصموه في ذلك، ثمَّ لجؤوا إلى القُرعة لتَحكم بينهم، فرمى كلٌّ منهم قلمَه أو سهمَه في الماء، فغاصَت أقلامهم وطفَا سهمُ زكريا عليه السلام، وهذا كلُّه بتَدبير الله. ليحظى زكريا بكفالةِ مريم.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (آل عمران: ٤٤).

إنَّ اختصامَ أهل المعبد في كَفالة مريم له أكثرُ من دلالة: أوَّلها أنه بصَلاح أبيها عمران جعل القومَ يتَصارعون على رعاية الطفلة، وكم مِن يتيم لا يجدُ فردًا واحدًا يؤويه، أفضلُ ميراث لأبنائنا هو تَقوى الله والعَمل الصالح، و قد قرأنا في سورةِ الكهف أنَّ الله حفظ كنزَ الأيتام لصلاح أبيهم.. ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ (الكهف: ٨٢).

كما يدلُّ خلافُ أهل المعبد فيمَن يَكفل مريم، على سوءِ أدبهم، وكان أولى بهم وهُم أهلُ التدين، أن يعرفوا فضلَ نبيِّهم زكريا عليه السلام ويوقِّروه ولا يُنازعوه في أمر، وهو ما يشير إلى تديُّنٍ شكليٍّ يظهر في ممارسة العبادات ولا يمسُّ النفسَ فيُهذبها ويرتقي بها، فلا خيرَ في صلاة أو صيام إن لم يورِّثا صاحبَهما تقوى في القلب وصلاحًا في القول والعمل.

ولو تنازع أهلُ الأرض كلُّهم مع زكريا فإنَّ الله بالغُ أمرَه، ولن يكفلَ مريم غيرُه، فهذا قدرُه خطَّه في كتابه منذُ الأزل ولن يُغيِّره أحد، وهو ما يُطمئننا؛ فأعمارُنا وأقدارنا وأرزاقُنا مَضمونة بضَمان الله،ولن تستطيع أيُّ قوةٍ أن تنتقص منهم شيئًا.

كبرتْ مريم تحت عيني زكريا، وجعلها اللهُ في أحسنِ صورة وأفضل خَلق وأكمل عبادة، وكان زكريا عليه السلام دائمَ التَّفقد لأحوال مريم، فمثلُه لا يخفى عليه أنها مِن رعيَّته وهو مسئولٌ عنها.

إنَّ تعهدَ الأبناء وملاحظةَ سلوكهم ومتابعةَ انتظامهم في الصلوات والدراسة ومعرفة أصدقائهم؛ من أهمِّ واجباتِ الوالدين التي لا يجب التهاونُ فيها،والتي سوف نُسأل عنها يوم القيامة.

كلما دخلَ زكريا على مريم المحرابَ وجد عندها رزقًا واسعًا ونادرًا، فكان تؤتَى بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، وهو ما أثار دهشةَ زكريا عليه السلام، فأعلمَته مريم أنه من عند الله،وأنَّ كرامات الله لا منتهى لها.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧ ﴾ (آل عمران: ٣٧).

تلقَّف زكريا كلماتِ مريم عن كرم الله بقلبِه قبل سَمعه، لقد كفلها زكريا ليربيها ويعلِّمها فإذا بها تُعطيه أعظمَ درسٍ في عطاء الله؛ حينئذ دعا الله مخلصًا أن يهبه الذرية الصالحة، وكان يعلم أن ذلك مستحيلًا بحِسابات البشر؛ فهو طاعنٌ في السنِّ وزوجته عاقر، ومضى زمنٌ طويل على

زواجهما دون أبناء، ولما رأى هبةَ الله بمَنح مريم الرزقَ العجيب بتضرُّعها وعبادتها له، فهو الكريم الذي يعطي بلا حساب؛ سار على دربِ مريم واجتهدَ وأخلصَ في الدعاء.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾(آل عمران: ٣٨).

إذا هبَّت رياحُك فاغتَنِمها فإنَّ لكلِّ خافقةٍ سكونا[1]

عندما رقَّ قلبُ زكريا عليه السلام لكلام مريم عن كرم الله اغتنمَ تلك اللحظات ودعا الله مباشرة، هذه المواقفُ التي يلينُ فيها القلب وتنهمر الدموعُ وتَقشعرُّ الجلود لله؛ هي أفضلُ الأوقات لاستجابة الدعاء.

نادى زكريا ربَّه سرًّا، فسبحانَه هو السميعُ العليم يعلم ما في نفسِه ويسمع دعاءه الخفي.. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، دعا ربه بقلبٍ مُنكسر بأنه قد كبرَ سنُّه وشابَ شعرُه وضعفت عظامُه، دخلَ على ربِّه من باب الانكسارِ والتذلل، وهو بابٌ تاهَ عنه الكثيرون، أتبعَه بذكرِه نعمة ربه عليه.. ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ لم تردّ دعائي خائبًا ولا محرومًا من الإجابة؛ بل لم تزلْ بي حفيًّا ولدعائي مُجيبًا، ولم تزلْ ألطافُك تتوالى علي، وإحسانك واصلًا إليّ، وهذا توسلٌ إلى الله بإنعامه عليه[2]، ثمَّ بينَّ مسألته بين يدي مولاه، وهو أنه يخافُ على بني إسرائيل من بَعده أن يضلوا ولا يجدوا مَن يزكيهم ويُرشدهم إلى دينهم، وذكرَ أنَّ امرأته عاقر، ولكنه بالرغم من كلِّ تلك العراقيل والصعوبات طلبَ الوَليَّ الذي يُكمل رسالة النور من بَعده؛ ولدًا يرثُ النبوة والحكمة.

(١) بيت من الشعر، يُنسب للإمام علي رضى الله عنه.

(٢) تفسير السعدي.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾(مريم: ١-٦).

تجمَّل زكريا عليه السلام في دعائه بحُضور القلب وذِكْر فَضل الله عليه؛ فاستُجيب له، وبالطبع لم تكن هذه هي المرةَ الأولى التي يدعو فيها بالولد، فقد بلغَ من العمر عتيًّا، فلا بدَّ أنه دعا مئات المرات قبل ذلك، فأحدُ أسباب قَبول الدعاء الإلحاحُ فيه وتكرارُه واليقينُ في الإجابة، أما رفعُ الأيدي دونَ حضور القلب ففيه إساءةُ أدبٍ مع الله، وأجدرُ بألّا يُستجاب.

تقبَّل اللهُ دعاء زكريا عليه السلام لأنه وأهله كانوا يُسارعون في أعمال الخَير والبر، ويدعون الله طمعًا في رحمته وخَوفًا من عقابه، وكانوا دائمي الخشوع والتَّضرع لله، هذه الصفاتُ الحميدة كانت أسبابًا للإجابة.. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء: ٩٠).

نُسارع ونسعى بجدٍّ في أمور الدنيا مثلَ الدراسة والعمل واللهو، أما في أمر الآخرة- في الخيرات، في أعمال البرّ والتقوى،في الصلاة أو الإنفاق مساعدة الغير- فنَتَريث ونتروَّى ونتمهَّل ونتأخر ونؤجِّل،وربما لا نقوم بها، أما أصحابُ الهمم العالية أمثال زكريا وزوجِه فهُم: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

جاءتِ الملائكة زكريا عليه السلام وهو قائمٌ لله في مُصلاه، وبشَّرته بميلادِ ابنه "يحيى" وأخبرته بأنه سيكون سيدًا في العبادة والخلق ومُصدِّقًا بعيسى عليه السلام

وحَصورًا[1] ومِن أنبياء الله الصالحين، لقد جاءته البُشرى بكلِّ ما تمنى وأكثر، فلن يُرزق ولدًا كسائر البَشر؛ إنما نبيًّا صالحًا وسيدًا وحَصورًا، هذا هو كرمُ الله لعبادِه الصابرين الطائعين.. ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

يَندهش زكريا عليه السلام من هذه البِشارة ويسأل الملائكة: كيف يكون له ولدٌ وهو رجل عجوزٌ وزوجُه عقيم؟! لعلَّه أراد أن يسمعَ مرَّة أخرى من الملائكة كي يتأكدَ من هذا الخبر العَجيب، فزكريا يعلمُ أنَّ الله لا يعجزه شيء، فيردُّ عليه الملكُ أنَّ الله يفعلُ ما يشاء.. ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

لا يَزال زكريا عليه السلام في اندهاشِه وتَعجُّبه؛ لذلك طلبَ بُرهانًا يعرف به حدوثَ معجزةِ حمل زوجته من صلبه، فيردُّ عليه الملك أنَّ عدمَ قُدرته على النطق لمدة ثلاثة أيام[2] هي العلامة على ذلك، ويأمره بكثرة ذكر الله وتَسبيحه وهو في هذه الحالة.. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ (آل عمران: ٤١).

وبالفِعل يَخرج زكريا عليه السلام من محرابه وقد انْعقدَ لسانه عن الكلام، وأوعَز إلى قومه بالإشارة أن يسبِّحوا الله بُكرة وعشيًّا.. ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ (مريم: ١١)، حتى في هذا

(١) حَصورًا: أي ممنوعًا من إتيان النساء، فليسَ في قلبه لهنَّ شهوة، اشتغالاً بخدمةِ ربه وطاعته، تفسير السعدي.

(٢) تفسير ابن كثير.

الظَّـرف المهيب،ومـعَ عـدم القـدرة عـلى التحدُّث،يأمـر زكريـا أتباعَـه بالمحافظة والمداومـة عـلى الصـلاة والذكـر. هـو رسـولٌ وإمـام وداعيَـة لا ينسـى رسـالتَه؛ وهـي تذكـيرُ النـاس بعبـادة ربهـم. والمؤمـنُ الحـقُّ يَتَذكـر الله في كلِّ وقـت،ولا تُلهيـه الأفـراح أو الشـدائدُ عـن ذكـرِه وإقامـة الصـلاة.

تحمـلُ زوجـةُ زكريا ببركـةِ دعائه وبقـدرةِ الله الخارقـة لنَواميـس الطبيعة، وفيه آيـةٌ لبنـي إسرائيـل الذيـن كانـوا في ذلـك الوقـت متقدِّمـين في الطـبِّ والعلـوم، ويعلمـون أنَّ حـدوثَ الحمـل لامـرأةٍ عجـوز أدركـت سـنَّ اليـأس لا يُمكـن بالمقاييـس العلميـة، فكيـف بأنثـى هـي في الأسـاس لديهـا عُقـم منعَهـا الحمـلَ طـوال سـنوات زواجهـا الطويلـة السـابقة! وأمـا مـن الناحيـة الأخـرى فـإنَّ الـزوج قـد هَـرِم وبلـغ مـن العُمـر عتيًّـا، وكأنهـا رسـائلُ للقـوم أن علـومَ الطب التـي أتْقَنتموهـا مـا هـي إلا أسـباب، وأنَّ الله قـادرٌ لا يعجـزه شيء فعـودوا إليه.

ولـدتِ امـرأةُ زكريـا مولـودًا ذكـرًا وهـو "يَحْيَـى"، سـمّاه الله مـن فـوق سَـبع سـماوات، فأحيـا بـه قلـبَ أبويه،وسَـعِدا بهـذا الطفـلِ المبـارك. نشـأ في بيـت النبـوة. ورزقَ الله يَحْيَـى العلـمَ صَغيـرًا، ويُـروى أنـه كان ابـنَ ثـلاث سـنوات ويَرفـض أن يلعـبَ مـع الصبيـة ويقـول: مـا للَّعـبِ خُلقـت، فآتـاه علـمَ التـوراة ورزقَـه الحكمـة والفقـه وهـو مـا يـزال صبيًّـا.. ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ (مريـم: ١٢).

إنَّ تعلـمَ يَحْيَـى عليه السلام كتـابَ الله في صِغـره أهَّلـه للحكمـة صبيًّـا، وتَعليـم الأطفـال القـرآنَ في مَهدهـم جديـرٌ ليُهـذب أخلاقَهـم ويسـتقيم بـه لسـانُهم، فبالقـرآن صلـحَ الأوائـلُ ويَنصلـح بـه حالنـا. والقـرآن يؤخَـذ بقـوة {خُـذِ الْكِتَـابَ بِقُـوَّةٍ} أي بهمَّـة عاليـة، تعطيـه جـلَّ مَجهـودك ووقتـك وتَركيـزك،

وليس في أوقات فراغك فقط. ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ تلاوةً وحفظًا وتعلمًا وتفقُّهًا، ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ تَطبيقًا لأوامره ونهيًا عن محرَّماته، ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ حتى نكون قرآنًا يَمشي على الأرض.

تحلَّى يَحْيَى عليه السلام بمَكارم الأخلاق، فكان حَنونًا ورَحيمًا، بخلاف قومِه الذين شاعت فيهم غلظةُ الطبع وقسوة القَلب، وبرّأه اللهُ من المعاصي والذنوب المنتَشرة في عَصره، وزيَّنه بالتقوى والإيمان، وجعله بارًّا بوالديه يحبُّهما ويَعطف عليهما ولا يَعصي لهما أمرًا، فكان نِعمَ الابن. هكذا يكافئ اللهُ عبادَه المؤمنين ويستجيب دعاءهم ويَرزقهم بأفضل مما كانوا يَرجون، فقد صبرَ زكريا سنينًا حتى صار كهلًا، فظلَّ يدعو ربَّه بلا قنوط أو يأس، فلم يرزقْه ولدًا عاديًّا إنما أعطاه نبيًّا كريمًا، ظهرتْ كراماتُه منذ الصغر، فسبحانَه نِعم المجيب. ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ (مريم: ١٣-١٤).

عاشَ يَحْيَى عليه السلام يدعو قومَه ويَعظهم ويَحكم بينهم ويبشِّر بقدومِ المسيح، ويقال إنه قُتِل شهيدًا على يد الحاكم الطاغية (هيرودس)؛ لأن يَحْيَى رفض زواجَ هيرودس بابنة أخيه. كان ليِّنًا رحيمًا بالمؤمنين لكنه لم يلنْ لهذا الحاكم ولم يداهنه أو يساومه. كان يَحْيَى في شَرع الله حاسمًا حازمًا واضحًا ولم يحلّل ما حرَّم الله؛ فزواجُ المحارم حرام ولا يَجوز، وكلمةُ الحق يجب أن تَعلو ولو دفعَ مقابلها حياته، فالسلام على هذا النبيِّ الرؤوف الحنون الطاهر البارِّ بوالديه، يوم مولده ويوم موته ويوم يُبعث حيًّا.. ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ (مريم: ١٥).

* * *

بينَ يدي القصة:

يظهر مِن أحداث القصة أنَّ آلَ عمران اتَّسموا بالطُّهر والنقاء والإخلاص لله في العبادة، كانوا ملازمين للمِحراب يذكرون الله ويَعبدونه، هُم عائلة عرفت جوهرَ الدين وتحلَّت بمَكارم الأخلاق والمسارعة في الخيرات، بخلاف مَن حولهم الذين تاهوا عنِ الصراط المستقيم وتَقاتلوا على المال والسلطة. رأينا امرأةَ عمران وهي تُنذر جنينها إلى خدمةِ بيت الرب، لم يكنْ لديها غيره، فإذا بها أنثى (مريم) فتَعتذر لله. ثمَّ زكريا يُحسن كفالةَ مريم ويرعاها ويُواصل دعاءه بالولد، فيَرزقه الله بيَحْيَى وهو كهلٌ وزوجتُه عاقر، مكافأةً له على صبره ودعائه ومسارعته في عَمل الخيرات، ثمَّ يأتي يَحْيَى ليُكمل مسيرةَ الدعوة إلى الله بالحسنى إلى أن يستشهَد في سبيل كلمة الحقّ. وهذه مريم منذ صِغرها في مِحرابها تَبتهل وتتعبَّد ويَجود عليها اللهُ بالرزق النادر الوفير.

***

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ

كانت ولادةُ يَحْيَى عليه السلام المعجزة ورزقُ مريم العجيبُ مقدِّماتٍ لمجيء المسيح عليه السلام، كان بنو إسرائيل - كما أوضحنا - مُغرقين في المادية، انكبّوا على علومِ الرومان واليونان من الطب والمنطق والفلسفة، فنَسبوا الأشياءَ إلى أسبابها، فالمرضُ يزول بالدواء، نَسوا أنَّ مَشيئة الله هي المحركُ الأساسي لمجرياتِ الحياة، نسوا غذاءَ الروح، فضاقَت صدورهم وتيبَّست أفئدتهم، مارسوا التدينَ في المعابد كما تمارَس الرياضات، حركة بالأبدان ولا حضورَ للقلوب، لذلك كانتِ الأرض على موعدٍ مع نبيٍّ يُعيدهم إلى أصل الدين، إلى التسامح والتَّواضع والزهد، وكان مجيء المسيح وحياتُه موجَّهة لهذا الهدف؛ دعوا عنكم ماديَّتكم، توجهوا إلى الله وليسَ للأسباب، الله هو مَن سنَّ قوانين الفيزياء والكيمياء والطب وغير ها من العلوم، وهو القادرُ على كَسرها، نواميسُ الطبيعة خلقها لتُنظم حياةَ الناس فيأخذوا بأسبابِ الرزق والعيش، ولكن لا تركنوا إليها وحدَها، توكَّلوا على الرزاق الخالق القادر.

تتَقاطع قصةُ مريم البتول مع قصة زكريا عليه السلام، فكما ذكرنا أنَّ زكريا بعدما أوَى مريم، وكبرت تحت بَصره ورعايته، كان يجدُ في محرابها رزقًا عجيبًا؛ لذلك سأل الله الولدَ فاستجاب له ووهبَه يَحْيَى عليه السلام، ونعود إلى مريم المثال على كمالِ النساء في العبادة والخلق والطهر في زمنٍ نَدر فيه ذلك. كانت مريم على موعدٍ مع بِشارة يزفُّها إليها وفدٌ كريم.

لم يكنْ وفدًا من العابدين أو مِن قِبل الحاكم، إنما وفدٌ من الملائكة أرسلَه الرحمن لمريم. لم تكنْ مريم من الرُّسل لتَزورها الملائكة ولكنها كانت عابدةً مُخلصة، جاءتها الملائكة لتُبشِّرها باختيار الله لها وتَفضيلها عن باقي نساء العالمين.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾، اصطفاءٌ وتطهير ثمَّ اصْطفاء؛ اصطفاءُ هداية لعبادته ومناجاته والوقوف بين يديه، وتطهير من الخطايا والدنايا ومن سوء الإخلاق والطباع وأمراض القلوب،فجعلها نَقية طاهرة شكلًا وجوهرًا؛ ثمَّ اصطفاها لتكون أمًّا لنبي الله وكلمتِه المسيح، اختارَها لتكون آيةً على قدرته فتلدَ بلا زوج، اجتَباها لترعى ابنَها دون أن يكون معها رجلٌ يُساهم ويساند في تربيته.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (آل عمران: ٤٢).

ثمَّ أمرت الملائكةُ مريم أن تشكرَ الله على هذا التشريف وتلك النعمة بكثرةِ الطاعة والصلاة..﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾. (آل عمران: ٤٣)، وكأنَّ جائزة مريم على حُسن عبادة الله أن تعبدَه بكثرةِ الركوع والسجود، فعبادتُه ومناجاته لها لذَّة لا يَعلمها إلا القلةُ المباركة، ثمَّ إنَّ الطاعة تحتاج لمواصلتها حتى لا تَنقطع ويَجد الشيطان للإنسان سبيلًا، ولنا في رسولنا ﷺ خيرُ قدوة حينما سُئل عن سبب اجتهاده في العبادة وقد غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر؛ فقال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا"[1].

(١) صحيح البخاري: ٤٨٣٦.

نُخطئ عندما نكافئ أنفسَنا على الطاعة في رمضان أو في الحج بأن نخفِّف من العبادات، فيدخل الشيطان ليُوسوسَ بأنك تَعبت واجتهدتَّ وقمتَ وصليت وصمتَ وتَحتاج إلى راحةٍ ليرجع إليك نشاطك، فإذا استرَحنا تكاسَلنا وضعفَت هِمَّتنا.

كان أمرُ الملائكة لمريم بأن تسجدَ وتَركع مع الراكعين، الطاعةُ تحتاج إلى صحبة، فحينما تكون في معيَّة الرِّفْقَة الطيبة فأنت أكثرُ نشاطًا وتَحفيزًا على الاجتهاد في الطاعة.

في أحدِ الأيام تبعدُ مريم وتعتزلُ الناس في اتجاه الشرق.. ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ (مريم: ١٦)، ربما أرادت خلوةً تتعبَّد وتَقنت فيها، أو قد تكون ذهبتْ للاغتسال أو التطهر فبعدتْ عن أعين الرجال، وفي الخلواتِ يَظهر صدقُ إيمان المرء، فمنّا مَن يختلي فيُذنب ويفجر، ومنّا مَن يختلي فيَتوب ويدعو، وفي ذلك يقول الشاعر:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

أرسلَ اللهُ جبريل لمريم في خلوتِها في صورة رجل، فاضطَّربت عندما رأته واستعاذَت بالله منه، فهي امرأة ذاتُ حياء وعفاف، ولا تريد أن تتكشَّف أو تَختلط بالرجال من غير مَحارمها، كما أنها خافت على نفسها منه، فربما يحاول الاعتداءَ عليها وهي وحيدةٌ وبعيدة عن قومها، لكنها وإن كانت بمَعزل عن الناس فإنها في معيَّة ربِّ الناس؛ لذلك ذكَّرت الرجل بأن يبعدَ عنها إن كان يخاف اللهَ ويتَّقيه، وتحذيرُ مريم ومحاولاتها لإبعادِ الرجل الغريب قبل أن يتكلم يدلُّ على أنَّ مريم لم تكن مُعتادة على التحدث مع الأجانب، وأرادت إنهاءَ الموقف قبلَ أن يبدأ، وهذا ما يجب أن تَحرصَ عليه الفتاة المؤمنة،فلا مجالَ لفضول الكلام مع غير المحارم، فمعظمُ النار من مُسْتصغر الشرر.

كما أنَّ استجارةَ مريم بالله يدلُّ على صدق وقوةِ إيمانها، فلم تفكرْ في أن تجري أو تُنادي على أحد، واستجارَت بالرحمن الذي شملَها برحمته والذي تثقُ أنها برحمته ستَنجو من شرِّ هذا الغريب.. ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ (مريم: ١٧-١٨).

جميلٌ أن تُسرع لحصن الرحمن ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ كلما أفزعَك أمر، فسبحانَه بيده الخيرُ وهو على كلِّ شيء قدير.

أفصحَ الغريبُ عن هويَّته حتى يهدئ من رَوع البَتول، فأخبرها أنه رسولٌ من قبَل الله (جبريل)، جاء ليهبها غلامًا زكيًّا طاهرًا من العيوب والذنوب والخِصال الذميمة.. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾(مريم: ١٩).

يَنقلب حالُ مريم من خوفٍ إلى تعجُّب واستنكار، فكيف يكون لها ولدٌ وهي بِكرٌ لم تتزوج، ولم يمسَسها رجلٌ في أي علاقةٍ آثمة! فالغلامُ يحتاج إلى حمل، والحملُ يَحدث من جماع الرجل المرأة، هذه مسلماتٌ يَعرفها الجميع.. ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ (مريم: ٢٠).

يردُّ جبريل عليه السلام بأنَّ حدوثَ الحمل بدون مَساس هيِّن على الله.. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾، هذه الأسبابُ خلقها اللهُ لنأخذَ بها وتَنتظم بها حياتنا، لكنها لا تُعجزه، هو مَن وضعَ نواميس الكون، فكيف للمَخلوق أن يتحكَّم في الخالق! إن أراد عطَّل تلك القوانين،وإن أراد جعَلَها تعمل، ثمَّ بيَّن الملك أنَّ الله شاءَ أن يخلق هذا الغلامَ بلا أبٍ ليكون آيةً معجزةً لقومه، وسيَجعله رحمة منه، رحمة بأمِّه حيث سيرتفع

بـه ذِكرُهـا ويكـون مصـدرَ فَخـر وعـزَّة لهـا إلى يـوم الديـن، ورحمـة بالنـاس ليعلمَهـم دينهـم ويرشـدهم إلى ربهـم.

كانـت كلـماتُ جبريـل عليه السلام تبعـثُ عـلى الطمأنينـة، ففـي البدايـة أعلـمَ مريـم أنَّـه رسـولٌ مـن الله لكـي تسـكُن، ثـمَّ أبـانَ لهـا أنَّ ذلـك الطفـل الـذي سـتَلده سـيكون {آيـةً للنـاس ورحمـةً منّـا} رحمـة وليـس سـببًا للعـذاب أو المهانـة والخِـزي والعـار لـك.

ثـمَّ ختـمَ جبريـل عليه السلام بـأنَّ مسـألةَ ولادة الغـلام﴿أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾، أمـرٌ قَضاه اللهُ مـن فـوق سَـبع سـماوات وهـو مَكتـوبٌ منـذ الأزل في اللـوح المحفـوظ، ولا بـدَّ أن يحـدث، وكأنـه يَقطـع عليهـا طريـقَ المجادلـة في ذلـك الموضـوع. لـو أيقنّـا بحـقٍّ أنَّ أقدارنـا﴿أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ لمـا نَدمنـا أو تحسَّرنـا، فهـذا أمـرٌ قَضـاه اللهُ علينـا مـن الأزل،وسـوف تـراه أعيُننـا، وأقـدارُ الله كلهـا رحمـة، فـلا أحـزانَ ولا يـأس.. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ (مريـم: ٢١).

كان كلامُ جبريـل عليه السلام من جَوامـع الكلم، فمعَ قلَّة ألفاظه فقـدْ كثرت وغَزرتْ مَعانيـه، فأفصـحَ عـن هيئتـه ومهمَّته وصفـاتِ الغلام ومسـتقبله في إيجـاز مُعجز.

لم تكـنْ هـذه هـي المـرةَ الوحيـدة- عـلى مـا يبـدو- التـي تتلقَّـى فيهـا مريـم عليها السلام هـذه البشـارة، ففـي مَوضـع آخـر تبـيِّن لنـا آيـاتُ القـرآن أنَّ وفـدًا مـن الملائكـة بشَّرهـا بميـلادِ كلمـة الله ورسـوله المسـيح عيسـى ابـن مريم،وأنـه سـيكون شَريفًـا في الدنيـا والآخـرة ومِـن عبـاد الله المقرَّبـين، كـما سـيمكِّنه اللهُ مـن التكلـم والدعـوة في طفولتـه المبكـرة، وذلـك ليَسـتطيع أن يُـبرئ أمـه ويثبـتَ لقومـه أنـه معجـزةٌ مـن الله عزوجل.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

حملتْ مريم بنَفخةٍ من جبريل بأمرٍ من الله، فخافَت أن يفتضحَ حَملها، فذهبتْ بعيدًا عن سكنها، ويقال إنها ذهبت وراء أحدِ الجبال في وادي بيت لحم، ولا بدَّ أنَّ شهور الحمل[1] مضت عليها ثقيلةً كالجبال، فهي تمكثُ بعيدًا عن أهلها، تتخفَّى عن عيونِ المارَّة من جهة، وتَتَفادى قطّاع الطرق و السباع والحيات والعقارب من جهةٍ أخرى، ثمَّ إنَّ عليها أن تجدَ طعامَها وشرابها، كلُّ ذلك مع وَهَن الحمل وثقَلِ الوحدة، ومعَ التفكير المضني فيما سيَفعل قومُها الغلاظ حينما يَعرفون بحملها وولادتها عند عودتها إليهم، أيُّ فَضيحة هذه! هل سيَرجمونها علانيةً وعلى وجوههم نظرةُ الاحتقار لها، هل سيُلاحقها العارُ هي وأهلها إلى الأبد؟!

تحمَّلت مريم طوالَ فترة الحَمل ما لا يتحمَّله البشر، ولنا أن نتصورَ هذه الشابَّة التي كان العبّادُ يتَنافسون أيُّهم يكفلُها صغيرة، ثمَّ هي فتاةٌ يانعة مُعزَّزة مُكرمَة بين قومها،مثالٌ للفتاة المستقيمة الناسِكة، تقيم بين قومِها وتتعبَّد آمنةً في محرابها ويأتيها أعجبُ الأرزاق إليها، ثمَّ تجد نفسَها في مَكَان قَصِيٍّ بعيدٍ موحِش تتخفَّى مثل اللصوص، لا بيت تسكنُه ولا معبد تصلّي فيه! لو كانتِ امرأة غير مريم لأصابتْها الكآبة وربما ماتَت كمدًا وحزنًا، لكن مريم الناسِكة اعتادت الأنسَ بالله، تَعَوَّدَت على الخلوة بالرَّحمن، هي في راحةٍ وسَكينة ورضا حينما تُناجي ربها وتَركع وتَسجد بين يديه، ولعلَّ ذلك ما خففَ عنها وطأةَ الغربة وَوَحْشة المكان.

(١) ذكر بعضُ المفسرين أنَّ فترةَ الحمل لم تستغرق زمنًا، وقال ابن عباس: ليس إلا أن حَملتْ فولدتْ. تفسير الطبري.

تمرُّ الأيامُ ويأتي اليومُ الموعود، تُفاجأ مريم بانقباضاتٍ قوية وآلامٍ في رحمها لم تَعرفها من قبل، إنه المخاض، وهذه هي آلامُ الولادة، لم تجدْ ما يمكن أن تستندَ عليه غير جذعِ نخلةٍ في العراء! هذا هو المتاح، لا بيت يَسترها أو سريرًا لتَرتاح فوقه أو غطاءً ليُغطيها، كما لا يوجد قَابِلَة أو دايَة لتطبِّبها أو أختًا أوأمًّا لتُساندها في هذه الظرفِ المرير،ومع اقتراب خروج ابنها إلى الدنيا واقتراب المواجهة مع قومها، وما يستَتْبعه من فَضيحة لها ولأهلها؛ بالتأكيد سيُطلقون عليها الزانية أو ربما العاهِرة، بعد أن كانتِ الناسكة الخَلوقة! تمنَّت مريم الموت، ليتَني متُّ قبلَ هذا الموقف المرير ولم أكنْ شيئًا يُذكر، رغبتْ في الموت مخافةَ ذلك العار المنتظر، هكذا تَدفع اتِّهاماتُ الناس الأبرياء لتمنّي الموت وربما ينتحرون بسبب وطأة الظلم ومَرارة الذلِّ والعار. إنَّ الإشاعاتِ سلاحٌ خبيث لا يجب تَصويبه على البَشر- وبخاصَّة الفتيات- بدون بَيِّنة، وهو عندَ الله إثمٌ عظيم.. ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ (مريم: ٢٣).

كلُّ هذه المعاناة مرتْ بها مريم وهي الصِّدِّيقَة العابدة القوّامة! لقد أرادَ الله ﷻ رفعَ درجتها بهذا الابتلاء العَظيم، وفي الحديث: "أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ الصالحون، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ"[1].

إنما الصبرُ ساعة ويأتي فرجُ الله بعده. في تلك الساعة العصيبة، يأتي مريم أشدّ ما كانت تحتاجه، إنه الأملُ والدَّعم النفسي.. أنتِ لستِ وحيدة يا مريم، اللهُ معك وناصرك ومؤيِّدك، فلتسكني وتطمئنّي. سَمعت مَن يقول لها لا تَحزني، قد جعلَ الله لك نهرًا من الماء لتَشربي منه،وهزّي

(١) الجامع الصغير: ١٠٥٠.

تلك النخلة التي تَستندين إليها فتسقط عليك الرُّطب الناضجة، فكُلي منها واشربي من هذا النهر،وطيبي نَفسًا بهذا الوليد المبارك ولا تَحزني، وإن رأيتِ أحدًا من الناس فأعْلميه عن طريق الإشارة أنَّك نذرتِ لله صومًا ألّا تتكلمي اليوم، وقد كان السكوتُ عن الكلام من العباداتِ المشروعة عندهم.. ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ (مريم: ٢٥-٢٦).

تكفَّل اللهُ ﷻ بجميع هُموم مريم عليها السلام دفعةً واحدة؛ فهي في حالة وهَن بسبب الولادة، فإذا بجِذع النخلة الذي بجوارها تدبُّ فيه الحياةُ ويُثمر الرطبَ الجَنيَّة الحلوة لتُطعمها وتستطيع أن ترضعَ صغيرَها، وهذا النهرُ يجري تحت قَدمها، فتَشرب وترتوي، وفوقَ ذلك جاءها الحلُّ لمشكلة مواجهة الناس، ما عليها سوى أن تقولَ إنها صائمةٌ عن الكلام، فسوف يسخِّر اللهُ مَن يُحاجج ويتكلَّم بالنيابة عنها، لا تَحزني يا مريم؛ إنَّ الله معك.

أمر اللهُ مريم أن تهزَّ جذعَ النخلة.. ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتُسقط عليها رطبًا ناضجَة، ولكن أنّى لامرأةٍ في نِفاسها أن تهزَّ النخلة! إنَّ هزَّ نخلة لا يَقدر عليه رجلٌ مَتِين، ثمَّ أليسَ الذي بعثَ في هذا الجذعِ الحياةَ وأثمر فيه الرطبَ بقادرٍ على أن يَجعلها تتنزَّل على مريم وقتَ جوعها؟! وذلك ليُعلمنا اللهُ قانونَ السَّببية، فلا بدَّ أن تأخذَ مريم بالأسباب ثمَّ تَترك الأمرَ والنتائج لربِّ الأسباب، فلتَبذل جهدَها في محاولة تَحريك النخلة، ولتَنزل الثمار هَنيئة لها بقدرته.

مضى على مريم ما شاءَ اللهُ لها أن تمكثَ وهي على هذه الحالة، ثمَّ تعافَت من نِفاسها وتمالكَت نفسها، وأدركت لطفَ الله بها، فسارتْ إلى

أهلها بهذا الطِّفل المبارك، ولنا أن نتصورَ هذا المشهدَ المهيب؛ مريم التي اختفَت لعدَّة شهور، ولا بدَّ أن الإشاعات تكاثرت حول سَبب غيابها تعودُ فجأة وهي تَحمل رضيعًا، وكأني بالقوم يتجمَّعون حولها وعيونُهم جاحظةٌ يحدّون النظرَ إليها ويَتَهامسون بالإثم وحديثِ الإفك، ثمَّ ابتَدَروا مريم بالاتهام مُباشرة.. ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ لقد أتيتِ بأكبرِ الكبائر وهي فاحشةُ الزنا، ثمَّ أخذوا يوبِّخونها ويؤنِّبونها.. ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ (مريم: ٢٨)، فأنتِ مريم التي كان يُضرب بها المثلُ في الأخلاق والعبادة والطَّهارة، وأنتِ ابنةُ شَيخنا وإمامِنا الرجل الصالح عمران، وتلك الأمّ التَّقية النقية حنَّة؟ فهل تكون بنتُ هذين الوالديْن الأكرمين تلك الفتاةَ الباغية؟! ردَّت مريم بثباتٍ وإيمان بالإشارة إلى هذا الوليد، وذلك امتثالًا لأمرِ الله بأن تقول إنها صائمةٌ عن الكلام، وليتولَّى هذا الرضيعُ الردَّ عليهم، فاستَنكر القوم الإشارةَ للصغير، وتهكَّموا، فكيف نتكلمُ مع ذلك الرضيع في مَهده؟! ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ (مريم: ٢٩) وقبل أن يُكملوا محاضرتَهم عنِ الشرف والنقاء نَطق الصبيُّ فَخيم الصمت على القوم وأنْصَتوا له وهو يقول: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾(مريم: ٣٠)، لم تكن كلماتُ عيسى عليه السلام في مَهده موجَّهة في المقام الأول لتَبرئة أمه، وإنما كانت لخدمةِ الدعوة وإثبات النبوَّة، فهو "عبد الله"؛ هكذا وصفَ نفسَه، ليس ابنًا لله أو إلهًا، وكأنه يقول لأتْباعه لا تُزايدوا عليَّ ولا تُطروني، فإنَّ مقامَ العبودية لله أشرفُ مقام، وهذه الفتنة التي استمرَّت بعد رفعِه لآلاف السنين ليست بسبب كلماته أو مواقفِه، فقد كان واضحًا ولم يدَّعِ أبدًا الألوهيةَ أو يشير ما قد يَشتَبه على أمته، ثمَّ أردفَ يقول ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾،

وهي موجَّهة لمن كذَّبوه كرسولٍ ورَفضوا الاعترافَ برسالته والالتزامَ بتَعاليمه وحاولوا صَلبَه وقتله ومَن سار على شاكلتِهم حتى يومنا، فهو نبيٌّ من قبَل الله آتاه الإنجيل، ورغمَ أنَّ الوحي لم يتنزَّل عليه بعد، لكنَّه استخدمَ صيغةَ الماضي ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾ و﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، هو أمرٌ مَقضيّ سيَحدث إن شئتُم أو أبَيتم، وهذه هي المعجزةُ الأولى: التكلمُ في المهد، فليتَ القومَ أدركوا ذلك واتَّبعوه عندما أتَته الرسالة.

أرادَ الله ﷻ لهذا الموقف أن يَحدث، أن تلدَ مريم العذراءُ بلا مِساس، وأن تَغيب لفترة، ثمَّ تأتي قومَها تحمله، فيَجتمع الناسُ ويتكلم الصبيُّ ويبشِّر بالنبوَّة في المهْد. هذه قصةٌ سيَراها الكثيرون وسيُحدِّثون بها غيرهم، هذه المعجزة يجب أن تَنتشر، ليرتَقبوا هذا الصغيرَ عندما يكبر وتتحقَّق البِشارة.

يُكمل الطفل حديثَه عن نفسه فيقول: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ فهو مباركٌ كثيرُ النفع والخير للناس أينَما حلّ، وكأنه يبشِّرهم ويرغِّبهم، فقد جاءهم برسالةِ البركة والخير والرَّحمة لهم، وقد أوْصاه الله ﷻ بإقامةِ الصلاة وإيتاء الزكاة مادام حيًّا، ونلحَظ في كلام عيسى كاملَ التسليم لله، فالله هو مَن جعله مباركًا ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ واللهُ هو مَن أوصاه بالصَّلاة والزكاة ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ فما يكون له أن يتقوَّل مِن تِلقاء نفسه، إنْ هو إلا نبيٌّ يوحَى إليه.

الصلاةُ والزكاة، هذان المِحْدافان اللّذان يُبحران بالمرء إلى رضا الله؛ واحدةٌ تخصُّه مع ربه، حيث يقوم ويَركع ويَسجد لخالقه فيُناجيه ويَدعوه، والأخرى مع الناس حيث يَبذل من مالِه للفقراء، فيَنصلح حاله وحالُ مجتمعِه. وهذا التكافلُ الاجتماعي هو الذي افْتقده قومُ عيسى؛ حيث

تكالَبوا على الدنيا ونَسوا التراحمَ والتَّعاضد، فلا خيرَ في عابدٍ يُدير ظهرَه لجاره حتى يموت جوعًا، وكذلك لا يُجدي إنفاقُ كنوز الدنيا إنْ لم يقترنْ ذلك بالإيمان، ومَناطُ الإيمان الصلاة.

يُتابع المسيح الحديثَ إلى قومه وهو مازال في طفولتِه أنَّ الله جعله بارًّا بوالدتِه "مريم"، مُحسنًا لها ومطيعًا لأمْرها، ولم يَجعله جبارًا مَغرورًا متكبرًا عن عبادةِ الله وحده لا شريكَ له، كما لم يَجعله شقيًّا عاصيًا، هذه هي أخلاقُ المصطفين الأخيار، فما يكون لرسولٍ يَبعثه الله أن يَستنكف عنِ التواضع والخُضوع والاستسلام الكامل لربِّه، أو يدعو الناسَ لعبادته من دون الله، فقد كانت كلماتُ المسيح واضحةً ولا تَحتمل اللبس، وليس فيها ما يوحي أنه ليس بَشريًّا أو له صفاتٌ ألوهية، فكلُّ الفَضل يُرجعه إلى الله، وهو العبدُ الشاكر لأفضال سيدِه ومَولاه وخالقه وجَاعلِه من المرسَلين، وهاديه إلى برِّ والدته وللعِبادة والخير، لا ينسبُ لنفسِه شيئًا من ذلك..﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ (مريم: ٣٢).

يختمُ عيسى عليه السلام خطبتَه بقوله.. إنَّ السلامَ عليه يوم ولادته ومماتِه وبَعثه، فاللهُ حفظَه وسلَّمه يوم ولادته، وذلك ببركةِ دعاء جدَّته حنَّة التي دعتِ الله أن يُعيذ مريم وذريتَها من الشيطان، وهو بذلك ينفي أن يكون قد جاءَ من الزنا؛ فقد سلَّمه الله من تلك التهمة الباطلة، والسلامُ عليه يوم يموت، فلن يفوزَ به أعداؤه ويموت مَصلوبًا؛ بل سيبقى إلى أن يخلِّص الأرضَ من أشرارها في آخر الزمان، والسلامُ عليه يوم يُبعث حيًّا يومَ القيامة فيُحشر مع إخوانه من الأنبياء والرُّسل المكْرمين، وليس كما زعمَ بنو إسرائيل مع الملاحدةِ الذين كفَروا باليهودية.. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (مريم: ٣٣).

تؤكدُ كلماتُ عيسى ابنِ مريم عليه السلام أنه بَشريٌّ وُلِد وسيَموت وسيَبعثه اللهُ يومَ القيامة كسائر الناس، كما دفعَ التهمَ عن أمِّه وعنْه؛ فهو ليس عاصيًا لله ولا هادمًا لما قبلَه من رسالة موسى عليه السلام؛ وإنما الرسالاتُ السماوية يتمُّ بعضُها بعضًا، كما أنَّه ليس إلهًا أو ابنًا لله كما زَعموا؛ لذلك عقَّب القرآن بهاتين الآيتين الكريمَتين بعد كلمات عيسى..

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ (مريم: ٣٤-٣٥).

❊ ❊ ❊

الحفيدُ: أنا في غايةِ الدَّهشة يا جدّي، كيف انتقلَ النَّصارى من التوحيدِ الخالص إلى إشراك المسيح وعبادتِه!

الجدُّ: يا بني، إنَّ الشيطان شغلُه الشاغل غوايةُ الصالحين، وقد قال عليه اللَّعنة: لأقعدنَّ لهم صراطَك، وقد جعلَ بني إسرائيل يعبدون العجلَ عند غيابِ موسى أربعينَ ليلة فقط عنهم بعد أن نجّاهم اللهُ من فرعون وشقَّ لهم البحر، كذلك حدثتِ الردَّة عن الإسلام بعد وفاة الرسول بفترةٍ وَجيزة.

الحفيدُ: وكيف للمَرء أن يَنجو من إغواء إبليس؟

الجدُّ: لا حولَ ولا قوَّة إلا بالله! الدعاءُ وكثرة الذكر ومصاحبةُ القرآن، والعلمُ النافع. وقد كان النبيُّ وهو رسولٌ من عند الله، وينزلُ عليه الوحي، ومع ذلك يُكثر من دعاء: "**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلبِي عَلَى دِينِك**".

الحفيدُ: ولكنْ يا جدي، كيف تغيَّر دينُ أمَّة كاملة؟!

الجدُّ: عندَ دُخول الرومان في النَّصرانية، وأثَّر ملكُهم في أسسِ العقيدة، ولم يتمكَّنِ القساوسةُ من التَّصدي لذلك التَّدخل السافِر؛ حدث الانجرافُ وتبدَّلت الديانة.

الحفيدُ: التفاصيلُ يا جدي! أريد أن أعرفَ ماذا حدث وكيف حدث.

الجدُّ: أعِرْني أُذنيك وقلبَك.

***

وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ

انتهى مشهدُ مُواجهة مريم وابنِها مع قومِها، وأخرسَ كلامُ الصبي الحاضرين، لكنَّ بني إسرائيل لم تهدأ شكوكُهم. لم تكن معجزةُ كلام الطفل بهذه الكلمات الحَكيمة كافية؛ فقد درسَ القومُ الطبَّ وبرعوا فيه، وعلموا أنَّ الطفل لا يأتي إلا من خلال علاقةٍ بين الذكر والأنثى، ولقد دَرسوا المنطقَ والفلسفة، وعَلموا مبدأ السَّببية، والذي يؤكد أنَّ لكلِّ حدث نتيجة، ولهذا فإنَّهم رَبطوا ولادةَ مريم بحدوثِ علاقة سابقةٍ مع رجل، وكأنَّهم آمنوا بعلوم اليونان والإغريق والرومان ونَسوا كتابَهم (التوراة) الذي امتلأ بالمعجزات التي يَصعُب على تلك العلوم تفسيرُها، ألم يقرؤوا بمُعجزة انفلاقِ البحر لموسى عليه السلام فكيف تعلّل علومُ الفيزياء تلك الظاهرة؟ وماذا عن تحوُّل العصا إلى حيَّة تَسعى؟! لقد طَغت علومُ الدنيا على رَوحانيات الدين فاستَعصى عليهم الإيمانُ وقبولُ عيسى ودعوتِه.

كبرَ عيسى عليه السلام في حِجر أمه مريم، نشأ في بيئةٍ صالحة، فأمُّه كاملة الخُلق الصَّديقة الناسِكة، تَرَبَّى وشبعَ من حنان أمِّه، فالأنثى بصفةٍ عامَّة أكثرُ عاطفة ورحمة ورقَّة وشَفقة ولُطفًا ولينًا وسماحَة وتواضعًا من الرجل، وكأنَّ ذلك تهيئةٌ وإعداد له لأداء رسالتِه، فقومُه كانوا في أشدِّ العطش إلى الإنسانية والروحانية والرحمة، وهذا من تَدبير الله؛ فهو يَصنع الرسلَ على عينه، ويُهيئ لكلِّ قومٍ النبيَّ الذي يَصلح لهم.

يقول الشاعر حافظ إبراهيم:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَّها أعددتَّ شعبًا طيب الأعراق

وقد كانت مريم نِعمَ المدرسة لعيسى عليه السلام، وقد أعدَّ اللهُ مريم أحسنَ إعدادٍ عندما أوكل كفالتَها لزكريا. الرجالُ صنعةُ النساءِ من الأمهات، فإن درَّبنا البناتِ على كتاب الله وحُسن الخلق ضمنّا جيلًا ربانيًّا.

بلغَ عيسى عليه السلام أشدَّه، وبعثَه الله إلى بني إسرائيل نبيًّا بَشيرًا ونذيرًا، وأيَّده بالآيات المعجِزة وبالوحي، وقد كان آخرَ رُسل السماء إليهم خاصَّة، أعْلَمهم أنَّ الله قد اختارَه ليكون رسولًا، وأنه يوحَى إليه من ربه، وأنه أنْزِل عليه الإنجيل، وأنه جاء ليوضِّح ما اسْتشكلَ عليهم في أمور دينهم واختلَفوا فيه، وأمرَهم بعبادة الله وحدَه وبتقواه في السرِّ والعَلَن، ثمَّ أمرَهم بأن يتَّبعوه ويطيعوه.. ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ (الزخرف: ٦٣).

ورغمَ أنَّ القوم أهلُ كتاب (التوراة) ويَعرفون ما فيها من أحكامٍ وبِشارات برُسل الله، وقد كانوا يَزهونَ بذلك على باقي الناس، ويَعتبرون أنفسَهم أبناءَ الله وأحباءه وشعبَه المختار؛ لكنهم لم ينتفعوا بما في التوراة من حكمةٍ وموعظة وهدايةٍ وتَهذيب وتَزكية للنفوس، وقد شبَّههم اللهُ في ذلك بالحمار الذي يحمل الأسفارَ (الكتب)، لا ينتفعُ بهذه الكتبِ رغم أنه يَحملها فوق ظَهره ويتحمَّل عبء حِملها وثقل وزنها.. ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ (الجمعة: ٥).

امتنعَ بنو إسرائيل عنِ الإيمان بعيسى عليه السلام وكذَّبوه، ورفَضوا اتِّباعه، رأوه شاباً صغيرَ السن أتى من قريةٍ صغيرة "الناصرة" ليُزاحم كبارَ أحبار مَعبد القدس، خافوا أن يسحبَ البساطَ من تحتهم، وكبرَ عليهم أن يَنصاعوا لأمره، اسْتكبروا في أنفسهم وعَتَوا عتوًّا كبيرًا، وتلك شيمتُهم؛ فقد كادَ آباؤهم أن يقتلوا هارون لما غابَ موسى عنهم، وذلك لأنهم رأوه شخصًا متواضعًا ضعيفًا.. ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾، وألقَوا أخاهم الصغيرَ يوسف في الجبِّ لأنه ضعيفٌ ووحيدٌ وهُم عصبةٌ قوية.. ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ واسْتنكروا أن يكون طَالُوتُ مَلِكًا عليهم لأنه ليس غنيًّا.. ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، لكنَّهم أذعَنوا لداود وسليمان لأنَّ الله أعطاهما مُلكًا عظيمًا.

لقد كانوا ينتظرونَ ذلك المُخَلِّص القائد البَطَل الجَبَّار الشَّدِيد الذي يَقودهم إلى النصر وتَحرير بلدهم والتَّنكيل بأعدائهم والثأر ممَّن أذلَّهم وسَباهم وشرَّدهم في الأرض، ثمَّ يُصبحوا سادةَ الأرض ويُعيدوا مجدَ مَملكة سليمان ويُعيدوا تشييدَ المعبَد العظيم؛ فإذا بعيسى يأتيهم بهيئتِه الرَّحيمة ليُخلِّصهم من الكبْر والأخلاق الرَّذيلة ويأمرَهم بالتواضُع والتراحم والتَّعاطف، فأبَوا أن يُطيعوه ويتَّبعوه لأنه خيَّب توقعاتِهم وآمالَهم المنشودة في الزعامة والقوة.

إنَّ الاعتمادَ على فكرة "المُخلِّص" أو "البطل الخارق" كان بمَثابة المُخدّر الذي تَعاطاه بنو إسرائيل لعدةِ قرون؛ عطَّلوا العملَ ورفضوا السعيَ والنِّضالَ في انتظار هبوط المُنقِذ الإلهي الذي سيُحرِّرهم من بَطش الرومان، وهذا المفهومُ الذي ظاهرُه الإيمان وجوهرُه التواكل هو أحدُ حَبائل الشيطان ليثبِّط به عزيمةَ المجتمع، فلا داعي لإعدادِ ما استطعنا

من قوَّة ومن رباط الخيل؛ فسوفَ يأتي المُحررُ ويَنتَشلنا ويحوِّل حالنا إلى أحسنِ حال! نَسوا أنهم لم يتمكَّنوا من دخول الأرض المُقدسة وفيهم نبيَّا الله موسى وهارون عليهما السلام، وأنَّهما انتَصروا مع طالوت بعدما عَزموا على القتال وثَبتوا عليه.. ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وكذلك لم تقمْ للإسلام دولة إلا بعدَ الهجرة، حينما نصرَ الأنصارُ دينَ الله ورسوله، فإنَّ سننَ الله لا تتبدَّل ولا تَتَغير، فلم يَعتبروا من تاريخِهم؛ لم يعدّوا العدةَ ويُصلحوا ذاتَ بينهم حتى يكونوا أهلًا للنصر، وهذه الآفةُ متَّصلة إلى يومِنا هذا، فالكثير يَترَقَّب رفعَ الغُمَّة وحلَّ الأزمة من السماء بسلبيَّة تامَّة، دون أن يُحركَ ساكنًا، مُنتظرًا للفرج أن يأتي من السماء!

لم يكتفِ بنو إسرائيل بمُعاندة عيسى عليه السلام؛ بل آذوه ووَصَموه بأنه ابنُ زنا رغمَ كثرة المعجزات التي أتى بها، كان يَكفيهم النظرُ إلى مريم أو الاستماعُ إليها ليُدركوا أنَّ هذه المرأة مثالٌ للعفاف والشرف، وقد اشتهرت بينهم بأنها المؤمنةُ القانتة الصادقة الخاشعَة الحافظة لعفَّتها وطهارتها و.. ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾ (النساء: ١٥٦)، وأما عيسى فملامحُه تدلُّ على أنه نبيٌّ صادق رحيم مُتواضع حَكيم ذو شأنٍ عظيم، ولكن القلوب المتحجِّرة لا تعرف الفِطنة ولا تَستشعر النقاء، أبتْ إلا الكفرَ برسول الله ومعاندتَه ومحاربته كما فَعلوا مع الرُّسل السابقين، فتارة يكذِّبون الأنبياء وأخرى يَغتالونهم وقد جاؤوا لإنقاذِهم من عذاب النار! . ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾(البقرة: ٨٧).

كانت دعوةُ المسيح عليه السلام امتدادًا لدعوةِ موسى عليه السلام وتصديقًا للتوراة التي أنزلَها اللهُ قبله، وذلك بخِلاف ما ادَّعت به بنو إسرائيل أنه قد جاءَ ليَهدم اليهودية، وقد كانت إحدى ذَرائع الكفر به؛ لذلك أوضحَ عيسى عليه السلام أنه لم يأتِ لهَدم الرسالات السابقة بل جاءَ ليُكملها (لا تظنّوا أني جئتُ لأنقضَ الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقضَ بل لأكمِل)[1]؛ فعيسى عليه السلام مثلُ باقي رسلِ الله الذين اختارهم للنبوة؛ يَدعو إلى الصراط المستقيم، وعبادة الله الواحد الأحد، بما فرضَه من شرائع تختلف من أمةٍ لأخرى.. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (آل عمران: ٥٠-٥١).

شدَّد اللهُ في شريعة موسى عليه السلام على بني إسرائيل عقوبةً لهم على بَغيهم وظلمِهم، حيث حرَّم عليهم كلَّ ذِي ظُفُر؛ وذلك كالإبل، وبعضَ شحوم البقر والغنم.. ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (الأنعام: ١٤٦)، لكنَّ شريعةَ عيسى عليه السلام جاءت بالتَّخفيف والرَّحمة لهم؛ حيث أحلَّ لهم هذه الطيباتِ التي حُرِّمت عليهم.. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، وكان الأوْلى بهم أن يُقبلوا عليها ويَستقبلوها بالبُشرى والسرور، ولكنهم- كعادتِهم- استكبروا وكذَّبوا، وحاولوا قتلَ رسوله..﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

(١) إنجيل متى: ٥ :١٧.

سافرَ عيسى عليه السلام عبرَ المدن والقرى إلى أن وصلَ إلى القدس، لدَعوة بني إسرائيل، وأراهم المعجزاتِ الخارقة الدّالة على نبوَّته؛ وهي أنه يصوِّر الطِّينَ على شَكل الطير ثمَّ ينفخُ فيه فيَصير طيرًا حقيقيًّا بإذن الله، وأنه يشفي مَرضَى العَمى والبَرص ويُحيي الموتى بإذن الله، وله القدرةُ على التنبُّئ بما يأكلون وما يخزّنون في بيوتهم، وهي آياتٌ عظيمة لتُبرهنَ على صدقِه عليه السلام، وذلك أنَّ قومه كانوا بارعين في الطبِّ فأراهم اللهُ المعجزات من اللون نفسِه الذي يُجيدونه، وفي هذا جاء قول الله تعالي: {وما أرسلْنا من رسولٍ إلا بلسان قومِه}، وإلَا فكيف لهذا الأعمى أن يرتدَّ بصيرًا بعد أن مسحَ عليه المسيح؟! هُم أطباء مَهرة، ويَعرفون أنَّ هذا المرض لا شفاءَ له، وإنْ كان هناك شفاءُ فيَحتاج لفترةٍ طويلة ويحتاج- أيضًا- إلى أدوية، أمّا أن يُبصر الأعمى بلَمسَة فهذا إعجازٌ إلهي! وهذا المرضُ الجِلدي(البَرص أو البُهاق) -المستَعْصي شفاؤه إلى يومِنا هذا- يبرأ مريضُه على يد عيسى، وفوقَ هذا أيَّده الله بمعجزةِ إحياء عددٍ من الأموات أمامَ أعينهم! وهذا الطين يشكلُه بيده ثمَّ يَنفخ فيه فتدبُّ فيه الروح والحياة، ونلحَظ أنَّ عيسى عليه السلام يذكِّر قومَه بالآيات، ويُكرر بعد كلِّ آية {بإذن الله}، وذلك حتى لا يَدخل أدنى شكٍّ في أنَّ هذه مشيئةُ المسيح، وإنما هي مشيئةُ الله أجْراها على يدِ المسيح عليه السلام لتَصديقه.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (آل عمران: ٤٨-٤٩).

لم يتأثرْ أغلبُ بني إسرائيل برؤيةِ هذه الآيات، ورغم أنَّهم سَمعوا عيسى عليه السلام وهو في المهد يَتكلم ويبشِّر بنبوَّته، كما بشَّر به يحيى بن زكريا عليه السلام، لكن كلُّ هذه البراهين لم تكن كافيةً لتَنشرح صدورُهم المريضة للإيمان، فبماذا فسَّروا تلك الخوارق؟ قالوا إنه سحرٌ مبين، وازْدادوا كرهًا لعيسى.. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف:٦). بيَّنَ المسيح أنه حلقةٌ وسط في سلسال النُّبوة؛ فهو مصدِّقٌ للتوراة التي أنزلَت من قبلِه على موسى عليه السلام، ومبشِّرٌ بمحمد الذي سيأتي من بَعده بالقرآن. فكلُّ أنبياء الله إخوة اتَّحدوا في الغاية والرسالة.

لكنَّ الله أراد لهذا الدين أن يستمرَّ ويعيش فقيَّض له رجالًا وقذفَ في قلوبهم الإيمانَ بالله وبرسوله؛ إنهم الحواريون، أصحابُ وأنصارُ عيسى، انتقاهم اللهُ لما علم بنَقاء سَريرتهم، فالتفّوا مِن حوله يتعلمونَ منه ويأتمرونَ بأمرِه.. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ (المائدة: ١١١).

سأل الحواريون المسيحَ عليه السلام: هل يمكن أن يُنزل اللهُ علينا مائدة من السماء؟ ويُجيبهم عيسى أنِ اتَّقوا الله.. ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (المائدة: ١١٢)، فاللهُ قادر على كلِّ شيء، ولكنْ أنَّى لعيسى أن يسأله مثلَ هذا الطلب، فالرسلُ يرفعون أكفَّهم ويدعون الله بالرِّفعة والنَّصر والجنان العلا، لكنَّ القوم ألحّوا عليه، وردّوا أنهم يريدون أن يأكلوا منها ولتطمئنَّ قلوبهم ويتقَّينوا من صدقِ رسولهم.. ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ (المائدةك ١١٣)، ولعلَّ القوم سَمعوا بنزول المنِّ والسلوى على أجدادهم

فـأرادوا أن يُجرِّبـوا طعـامَ السـماء، أو ربـما عَرفـوا أنَّ مريـم كان يأتيهـا الـرزقُ مـن عنـد الله فتمنَّـوه.

دعـا عيسـى عليه السلام ربـه أن يُنـزل عليـه مائـدةً مـن السـماء وتجمَّـل في الدعـاء، فقـال: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ (المائـدة: ١١٤).

أنـزل علينـا مائـدةً لتكـون عيـدًا لأمَّتـي عـلى مـرِّ الزمـن، فيَحتفلـون بهـذا العيـد ويشـكرونَ الله فيـه، ولتكـون آيـةً مُعجـزة توطِّـد إيـمانَ أصحابـه واتباعه، ثـمَّ يختـم بقولـه (وارزقنـا وأنـت خـير الرازقـين)، فهـو أهـلُ العطـاء والكـرم الـرزّاق. لقد حوَّل عيسـى طلـبَ الطعـام الـذي أرادَه الحواريـون إلى صيغة دعاءٍ جميلـة راقيـة، لم يسـأَلْ وجبـة وإنَّـما سـأل الله آيـةً عظيمـة يتَّخذونهـا عيـدًا لهـم.

اسـتجابَ الله لدعـاء عبـدِه المسـيح، وأخـبر نبيَّـه أنـه سـيُنزل عليهـم المائـدةَ ولكـن مَـن يشـهد هـذه الآيـة ثـمَّ يَكفـر بعدَهـا فسـوف يعذِّبـه عذابًـا شـديدًا لم ينـزلْ بأحـدٍ مـن قبـل. نزلـت المائـدةُ العظيمـة وعليهـا مـا لـذَّ وطـاب مـن الطعـام، وأكلـوا منهـا، ثـمَّ جَحـدوا وكفَـروا بعدمـا أنـزلَت عليهـم، فيـما ذكـر لنـا، فعذِّبـوا، فيـما بلغنـا، بـأن مُسِـخوا قـردةً وخنازيـر[1].. ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ (المائـدة: ١١٥).

عانـى عيسـى ابـنُ مريـم عليه السلام أشـدَّ العنـاء مـع بنـي إسرائيـل، لقـد كانـت معجزاتُـه كثـيرة ومتنوِّعـة، يروَنهـا بأعينهـم، ثـمَّ يواصلـون عنادَهـم لـه وإيذاءهـم لـه إلى أن وصـلَ الأمـرُ لمحاولـة التخلُّـص منـه بالقتـل، فلـما شـعر

(١) تفسير الطبري، بتصرف.

عيسى بتَصميمهم على الكفْر والضلال سأل عن أنصارِه الطائعين لله، فأجابَه الحواريون أنهم أنصارُه في الدعوة وأشهَدوه على إيمانِهم، ثمَّ سألوا الله أن يَكتبهم من الصادقين يوم القيامة.. ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (آل عمران: ٥٢-٥٣).

لكنَّ الحواريين المؤمنين لم يكونوا بقوةٍ وعددِ الكفار المنْكرين للدعوة، فتجرَّأ القوم وأرادوا أن يُطفئوا نورَ الله؛ حاولوا اغتيالَ رسول الله، يقتلون رجلًا لأنه قال ربّي الله، لأنه دعاهم للتَّقوى والحبِّ والخير، وقد قضوا من قَبله على رسول الله يحيى عليه السلام، لم يتورَّعوا عن إيذاء وإزهَاقِ أطهرِ الأنفُس والأرواح. ونَنقل من كتب النصارى أحداثَ الليلة الأخيرة في حياةِ المسيح عليه السلام على الأرض، وبما لا يتعارَض مع الرواية القرآنية، حيث يقال إنَّ اليهود نجَحوا أن يتآمَروا مع الحاكم الروماني (بيلاطس) لإصدار حكم بصَلب المسيح حتى الموت، وهو أمر غريبٌ أن يتَعاونوا مع ذلك المُحتلِّ الأجنبي على قَتل بني جلدتهم وسبْط مُعلِّمهم وحَبرهم وإمامهم وشيخهم "عمران"، كم تكون الطعنةُ مؤلمةً عندما تأتي من القريب!

تَكَاتَفوا مع بيلاطس الوَثني على إعدام نبيِّهم الذي جاء مصدِّقًا برسولهم موسى وبكتابِهم التوراة، بالإضافة إلى جميع رسل وكتبِ الله. لقد عانوا قرونًا من بَطش المُحتلّين الذين أذاقوهم ألوانَ العذاب، كان الأوْلى بهم أن يلتفّوا حولَ عيسى ليكون مخلصَهم من ذلك الهوان وتلك المذلَّة، لكنَّ أعينهم لم تُبصر الحقيقةَ الساطعة، وعقولُهم لم تفطنْ لتلك المعادلة البَسيطة، وهي أنَّ كفَّة الله هي الغالبة ولو بعد حين.

لقد أوهم اليهودُ هذا الحاكمَ أنَّ وجودَ عيسى خطرٌ على مُلكه، وبالرغم أنهم أهلُ كتاب ويَعلمون أن عقوبةَ القتل شديدةٌ عند الله لكنهم استَباحوا دمَه خوفًا على مصالحهم الدنيوية وعلى أوضاعِهم الاجتماعية، أرادوا أن تكون اليهوديةُ حِكرًا عليهم، وأن يُصبحوا أبناءَ الله وأحباءه وشعبَه المختار، ليس بأعمالهم ولكن بنَسبهم، خافَ حاخاماتُ المعبد أن يسلبَهم عيسى سلطتَهم الدينية التي يتكسَّبون منها، لم يسعْهم قبولُ دعوة السماحة والحبِّ والرجوع إلى أصل وجوهر الدين.

انطلقَ مجموعةٌ من الجند الرومان- ومعهم بعض اليهود إلى بيت المقدس- لإلقاء القبضِ على عيسى عليه السلام ومِن ثمَّ تنفيذُ حُكم الإعدام فيه، وقد كان عيسى في تلك الليلة مع اثني عشَر رجلًا من الحواريين، علمَ عيسى بقُدوم الجنود قبل أن يَصلوا، وقد أخبرَه الله أنهم لن يَصلوا إليه ولن يؤذوه، وأنَّ الله سيرفعُه إليه، وأنه سوف يلقي شبهَه على أحدِ أتباعه من الحواريّين. عَرَّفَ المسيح الحواريّين بما سيَحدث له ليطمئنّوا عليه، وبالفعل رفعَ اللهُ عيسى إليه، وألقى شبهَه على أحدِ الحواريين، فلمّا أقبلَ الجنود أمسكوا بالشَّبيه وصَلبوه وقَتلوه..﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾(النساء: ١٥٧-١٥٨).

حاول اليهودُ استئصالَ النصرانية، ظنّوا أنَّ قتل الرسول كافٍ لوأدِ الدعوة، ثمَّ تفرَّغوا- بمعاونة الرومان- للحواريين والمؤمنين بعيسى، فأكثروا فيهم القتلَ والصَّلب والسّجن، لكن يأبى اللهُ إلا أن ينجّي رسولَه عيسى عليه السلام، ويجعل الذين اتَّبعوه فوقَ الكافرين به إلى يوم القيامة، فتَنتشر

النصرانية أيًّا انتشار، وهذا مازال قائمًا إلى عَصرنا هذا، فاليهود أقلُّ وأضعفُ من النصارى.. ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (آل عمران: ٥٤-٥٥).

أُرسِلَ عيسى عليه السلام إلى قومٍ اتَّصفوا بالجحود والأنانية والغرور والمخادَعة، وكثرة المعاصي، وقَسوة القلب، والتَّكالب على جَمع المال، لكن دعوته أثمرتْ رجالًا مؤمنين امتازوا بالرأفة والرحمة، والزُّهد في الدنيا، حتى إنَّهم ابْتدعوا الرهبانية؛ فمَنعوا أنفسَهم من المطعم والمشرب والملبَس والنكاح، وانعزلوا عن مخالطةِ الناس واعتكَفوا في أديرةٍ في الأماكن النائية والجبال والصَّحاري يتقربون إلى الله ويتضرَّعون إليه.. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة الحديد: ٢٧).

وإن كان أغلبُ اليهود اتَّسموا بالمادية فإن أكثرَ النصارى تحلَّوا بالروحانية السامية؛ فقد اهتمَّ بنو إسرائيل بشكلِ الدين ونَسوا جوهرَه- وهو التراحم والتواضع والخشوعُ والتقوى-، فجاءت ردَّة فِعل النصارى مضادَّة في الاتجاه ومُتساوية في التطرُّف، فاتَّسموا بالروحانية والحنان والزُّهد والرحمة، لكن طغتْ روحانيتهم على جوانبِ الشريعة فتَساهلوا في الحلال والحرام.

ولا شكَّ أنَّ الفريقين (اليهود والنصارى) قد جانَبَهم الصواب، وأنَّ دين الله الحقّ يدعو إلى التوازن بين الروح والجسد، بين الرحمة ومُقتضيات العدل، بين العبادةِ والمعاملات؛ لذلك اختتمَت رسالات السماء برسالة النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ليُعيد هذا التوازنَ المفقود، ويعيد الناسَ إلى الصراط المستقيم، غير أنه للأسف اتَّبع بعضُنا سَنَن مَن قبلنا ودخلوا وراءهم جُحْرَ الضَّبّ، فبيْنَ مُضيِّع لفروض الدين يدَّعي أنَّ الدين محلّه محبةُ الله في القلب، وبين مُتشدِّد ينفِّر الناسَ بطبعة القاسي ووجهِه العَبوس، همُّه تقصيرُ ثوبِه وإطلاق لحيتِه، فوقَعنا بذلك في الفخِّ الذي سقطَ فيه النصارى واليهود.

وفي ذلك التَّباين بين اليهودية والنصرانية يقول الشيخ الشعراوي في خواطره: (الحقُّ سبحانه يقول: أنا أعطيتُ عيسى عليه السلام الحكمةَ، يعني: الإنجيل. والحكمة تعني: وضْع الشيء في مَوضعه، وعيسى عليه السلام جاءَ بعد اليهودية، وكانتِ اليهودية مُسرفة في المادية ومنها ينطلقونَ في كلِّ شيء. وقلنا: إنَّ هذه المادية هي التي دعَتهم إلى أنْ يَطلبوا من رسولهم رؤيةَ الله.. ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ (النساء: ١٥٣) فلا مَجالَ للغيبيّات في حياتهم، حتى في طعامِهم وشَرابهم لما أنزل اللهُ عليهم المنَّ والسَّلْوى لم يَقتنعوا به، وأرادوا طعامًا يَصنعونه بأيديهم، فقال لهم: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ (البقرة: ٦١)؛ لذلك حينما تَقرأ التوراةَ لا تجد فيها ذكرًا لليَوم الآخر وكذلك التلمود، مع أنَّ اليوم الآخر والإيمانَ به ركنٌ من أركان الإيمان، لكنهم لماديَّتهم لا يُصدقونَ به؛ لذلك لما جاءت رسالةُ عيسى عليه السلام جاءت كلها روحانيات لتَجْبُرَ النقصَ الروحي في اليهودية، ولتَستوي كفَّة الاعتدال في الخَلْق؛ لذلك لا نجدُ في الإنجيل شيئًا عن تِقنينات المجتمع،

فـإنْ أرادوا شـيئًا مـن ذلـك أخَـذوه مـن التـوراة، وقـد اضطّـروا- مـع مـا بينهـم مـن عَـداء- إلى أنْ يَجمعـوا التـوراةَ والإنجيـل في كتـابٍ واحـد وأسْـموه "العهـد القديـم"؛ لأنَّ عيسـى عليه السلام سُـئِلَ مـرةً عـنِ المـيراث فقـال: أنـا لم أُبعَـث مُورِّثًـا. إذن: لمـا طغَـتِ الماديـة قابلَهـا بروحانيـة، ليُحـدثَ الاعتـدالَ في حركـة الحيـاة لأنَّ الروحانيـةَ هـي التـي تدفـع الحركـةَ الماديـة؛ لذلـك جـاءت رسـالةُ عيسـى تُـربِّي المواجيـدَ الدينيـة وترتَفـع بالروحانيـات. فالحيـاةُ تحتـاج للجانبـيْن معًـا؛ الحركـة الماديـة التـي تتفاعَـل مـع الكـون والطبيعـة، ففـي الكـون أشـياء تُعطيـك دون أنْ تَتفاعـل معهـا كالشـمس والقمـر والنجـوم والمـاء والهـواء، فأنـت فقـط مُسـتقِبل، وهنـاك أشـياء أخـرى لا تُعطيـك إلا حـين تَتَفاعـل معها، كالأرض تَزرعهـا وتَحرثهـا وترعاهـا فتُعطيـك الـزرع. ولأنَّ اليهوديـة بالغـتْ في الماديـة بالغـتْ كذلـك المسـيحيةُ في الروحانيـة، ومِـن أقـوال السـيد المسـيح عليه السلام أنـه لمـا رآهـم يَرجُمـون امـرأةَ قـال: "مَـنْ كان منكـم بـلا خطيئـة فليَرجُمْهـا"، وقـال: "مَـن ضربَـك عـلى خَـدِّك الأيمـن أعطِـه خـدَّك الأيـسر". وهـذه رهبانيـةٌ لم يكتبهـا اللهُ عليهـم، إنـما تطوَّعـوا بهـا، وآفـةُ ذلـك أنهـم مـا رَعوْهَـا حَـقَّ رعايتهـا، إذًا: الـذي أُخِـذ عليهـم ليـس الرهبانيـة، إنـما أُخِـذ عليهـم أنهـم مـا رَعوْهَـا حَـقَّ رعايتهـا، ومادامـتِ اليهوديـة بالغـتْ في الماديـة، وجـاءت المسـيحيةُ روحانيـة صِرفـة ليـس فيهـا شيء، مجـرد قوانـين تنظِّـم المجتمـع؛ كان لا بـدَّ مـن إصـلاح الحالتـين، واحتاجـتْ حركـةُ الحيـاة لديـنٍ جديـد ورسـالةٍ جديـدة تراعـي الجانبـيْن الروحـاني والمـادي؛ فكانـت هـي رسـالة الإسـلام. وكأنَّ الإسـلام بجَمعـه بـين الماديـة والروحيـة هـو المنهـجُ المناسـب الصالـح لقيـادة حركـةِ الحيـاة، فالروحيـة لا تَسـتقيمُ أبـدًا بـدون الماديـة، فالعابـدُ مثـلًا لا يقيـم عبادتَـه إلا برغيـف يقيـم أَوْدَه وثـوبٍ يسـتر عورتَـه، فمِـن أيـن يـأتي

بالرغيف؟ ومِن أين يأتي بالثوب؟ الرغيف يحتاج إلى فلاحٍ يزرع ويَحصد، ويحتاج إلى مَطحن، وإلى مَخبز وعمّال.. إلخ، وكذلك الثوب، وكلها حركةٌ مادية؛ لذلك جعلَ الحقُّ سبحانه القرآن مُهيمنًا على الكتب السابقة)[1].

وبينما كذَّب بنو إسرائيل رسلَهم، ووصل الحدُّ إلى الإيذاء والقَتل لبعض الأنبياء؛ فإنَّ النصارى خالفوهم وَرَفعوا شأنَ رسولهم وبالغوا في ذلك وَجَعلوه ابنًا لله أو جزءًا منه- حاشا لله أن يتَّخذ ولدًا سبحانه وتعالى أحدٌ صمدٌ لم يلدْ ولم يولَد ولم يكن له كفوًا أحد- وبخاصَّة في القرن الرابع الميلادي[2] بعد دخول الإمبراطور الروماني "قسطنطين" في النَّصرانية، حيث تأثرتِ النصرانية بالمعتقدات الوثنية عند الرومان، حيث كانوا يعتقدون أنَّ الآلهة لهم أبناءٌ يعيشون على الأرض بين الناس، يتَّصفون بصفاتٍ مُختلطة بين البَشر والآلهة، فألبَسوا المسيح عليه السلام هذه الهيئة، بالرغم من وجود معارضةٍ كبيرة من جانب القَساوسة في ذلك الوقت، لكن قسطنطين استطاعَ أن ينتصر لمذهبِه بالقوة. وقد قلَّد بعضُ المنتسبين للإسلام النصارى فبالغَ الشيعةُ في قدرِ بَعض الأئمة وآلِ البيت، ونَسبوا لهم ما لا يَجوز من قُدرات، وراحوا يتقرَّبون إليهم ويدعونهم.

غيرَ أنَّ قصة المسيح عليه السلام لم تنتهِ بعد، فنحنُ على موعدٍ في آخر الزمان ليعودَ عيسى ابنُ مريم إلى الأرض ويَستكمل ما بقيَ من عُمره، فيَحكم بالشريعة المحمَّدية ويقتل الخنزيرَ ويكسرُ الصليبَ ويقتل المسيخَ الدَّجال؛ ليعمَّ الأمنُ والسلام، وتَكثر البركةُ في الأرض، مِصداقًا للحديث الشريف: "إنَّ روحَ الله عيسى ابن مريم نازلٌ فيكم، فإذا رأيتموه فاعْرفوه، رجل

(١) تفسير الشعراوي في تفسير آية رقم (٤٣) من سورة الزخرف، بتصرف يسير.

(٢) ينظر كتاب: المسيح عيسى ابن مريم الحقيقة الكاملة، د. على محمد الصلابي.

مَربوع[1] إلى الحُمرة والبياض، عليه ثوبان مُمصران، كأنَّ رأسه يَقطر وإن لم يصبْه بَلل[2]، فيدقّ الصليب، ويَقتل الخنزير، ويضعُ الجزية، ويدعو الناسَ إلى الإسلام، فيُهلك اللهُ في زمانه المسيحَ الدجال، وتَقع الأمنةُ على أهل الأرض حتى ترتعَ الأسودُ مع الإبل، والنُّمور مع البقر، والذِّئاب مع الغنَم، ويلعب الصبيانُ مع الحيات، لا تَضرّهن، فيمكثُ أربعين سنة ثمَّ يُتوفَّى، ويصلّي عليه المسلمون"[3].

ويُخبرنا القرآن بشهادةِ عيسى عليه السلام يومَ القيامة على قومه، إذ يسأله ربُّنا- ليقيمَ الحجَّة على مَن جعلوه إلهًا-.. ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيتبرأ المسيح من تلك الدَّعوة الباطلة، ويسبِّح الله ويُنزِّهه عن تلك المزاعمِ الفاسدة، ويُجيب أنه ما ينبغي أن ينسبَ لنفسِه ما لا يليقُ به، فهو عبدُ الله ورسوله وليس ربًّا أو إلهًا..﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وأنت يا ربّي أعلم بمَقولتي ودعوتي، فأنتَ علامُ الغيوب الذي يَعلم ما تُخفي النفوس، تعلم ما في نَفسي من تقوى وخُشوع وتَسليم لك، ولا أعلمُ ما في نفسك، ولا غيرَ ما سمحتَ لي أن أعلمَه..﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ ثمَّ يُردف قائلًا: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة: ١١٧)، فهو رسولُ الله ولا يَنطق عن الهوى، يتكلم بما أوحيَ إليه من ربه، مؤتَمِر بأمره، مُبلِّغ عن ربي غيرُ مُبتدع، دَعوتُهم لعبادتِك وحدَك ربي وربّهم، وكنتُ شهيدًا

(١) مربوع: وسط في الطول- ليس بالطويل ولا القصير.

(٢) أنَّ رأسه يقطر وإن لم يصبْه بلل: كنايةٌ عن نَضارتِه ونَظافتِه.

(٣) المستدرك على الصحيحين: ٤٢١٤.

عليهم في حياتي، أرشدُهم إلى صَحيح العقيدة والتوحيد، فلمّا توفَّيتني لم أعلم بتَحريفهم وتَبديلهم وقَولهم الزور، وكنتَ أنتَ المُطلع عليهم وعلى أقوالهم وعباداتهم.

أرسل اللهُ العديدَ من الرُّسل والأنبياء إلى بني إسرائيل لكنهم قستْ قلوبُهم فكَفروا وجَحدوا وكذَّبوا وقَتلوا الرسل، وكان المسيحُ آخرَ هؤلاء الأنبياء إليهم، فلم يكن حظُّه أفضلَ من سابقيه من الرسل، فآذوه وأمَّه ورَموه بالسحر وحاولوا قتلَه شرَّ قتلة، واضطَّهدوا المؤمنين به، فتحوَّلتِ النبوةُ لغيرهم؛ إلى العرب، وجاء خاتمُ الرسل النبيُّ الأمّي محمد بن عبد الله ﷺ لكافَّة الناس، مُصدِّقًا للكتب السماوية والأنبياء السابقين، ليتمَّ دينَ الله ويضعَ اللبنةَ الأخيرة في سلسلة النبوَّة، فحَقدوا عليه وحاربوه وحاولوا قتلَه عدَّة مرات، ولكنَّ الله نجّاه مِن مَكرهم، ونصرَ عبدَه وأعزَّ جندَه.

***

بينَ يَدي القصة:

تصوِّر القصةُ ذلك الاختلافَ الكبير في شخصية النبي المُخلِّص التي رسمها قومه في مُخيلتهم والشخصيةِ الحقيقية لعيسى ابن مريم عليه السلام، فبينما كانوا يتوقَّعون قائدًا جبارًا تَنصاع له الأرضُ ويَسود البشريةَ كما هو الحالُ مع داود وسليمان عليهما السلام؛ جاءَ عيسى عليه السلام رحيمًا مُتواضعًا ليُخلِّصهم من آفاتِهم الأخلاقية، ويَدعوهم إلى الخُلق النبيل والسُّلوك الطيب. كما توضِّح القصةُ أنَّ أغلبَ بني إسرائيل امتازوا بالكِبر والمادية، مما صرفَهم عن الإيمان وطاعةِ الرسول، فلقد نَظروا إلى عيسى بعَين الاسْتِصغار، وظنّوا أنَّ اتِّباعه لن يعود عليهم بالمكاسب، وربما يؤلِّب عليهم الرومان، كما اتَّسم القومُ بالقسوة والعُنف والتآمر، فقد تَحالفوا مع المُحتلِّ ليَقتلوا رسولهم، ثمَّ أَتْخَنوا في أتباعَ المسيح بالقتل والتَّعذيب والسجن.

ومِن خلال القصة يتجلَّى اسمُ الله "الأحد"، فهو الواحدُ الوتْر، الذي لا شبيهَ له، ولا نظيرَ له، ولا صاحبة، ولا وَلَد ولا شريك"[1]، فسبحانه ليس له ولَد، والمسيحُ عيسى ابنُ مريم عبدُه ورسوله، وأما قولُ النصارى بألوهيَّة المسيح فهوَ بُهتان وإفكٌ عظيم، ليس له أصْل.

***

(١) تفسير القرطبي، سورة الإخلاص.

الحفيدُ: أشكرُك يا جدّي على حكاية هذه القصص الشيِّقة.

الجدُّ: المهمُّ أن نَستلهم منها الحكمةَ والعِبرة ونعملَ بها.

الحفيدُ: أفعلُ إن شاء الله. أشعر أنَّ كلَّ قصة تعرض لنموذجٍ مُختلف من الناس.

الجدُّ: صحيح، نَجد في كلِّ قصة نماذجَ بشريةً مختلفة عن الأخرى، وهي نماذج تُماثلنا، كما أنها تَشتمل على مواقفَ إنسانيةٍ مختلفة أيضًا تُشابه ما نمرُّ به، حتى نتأسَّى بها ونفعلَ مثل الصالحين في هذه القصص ولا نأخذ مواقفَ العاصين.

الحفيدُ: أحبُّ قراءة وسماعَ وحفظ آياتِ القصص في القرآن؛ فهي تنقلُني إلى ذلك العصر البَعيد فأشعرُ أنّي عشتُ تلك الفترة.

الجدُّ: إنها فطرةُ الله. ولذلك تضمَّن القرآن ما يوازي ربعَ آياته للقَصص، حتى نفهمَ الدرس في شكلٍ محبَّب للنفس.

الحفيدُ: هل هناك قصصٌ أخرى يا جدّي.

الجدُّ: نعم، هناك المزيد!

***

قائمة المراجع

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن السعدي، دار ابن القيم.
- القصص القرآني عرض وقائع تحليل أحداث، د. صلاح الخالدي، دار القلم والدار الشامية.
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ابن كثير، دار الشعب.
- تفسير الأسماء الحسنى للشيخ عبد الرحمن السعدي،عبيد بن علي العبيد، مجلة الجامعة الإسلامية.
- تفسير البغوي (معالم التنزيل)، أبو محمد الحسن بن مسعود البغوي، دار طيبة.
- تفسير التحرير والتنوير (التحرير والتنوير من التفسير)، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.
- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)، ابن جرير الطبري، دار المعارف.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، دار إحياء التراث العربي.

❖ حياة المسيح، عباس محمود العقاد، نهضة مصر.

❖ مدرسة الأنبياء (عبر وأضواء)، محمد بسام رشدي الزين، دار الفكر المعاصر.

مواقع وكتب إلكترونية

❖ الأسماء الحسنى تصنيفًا ومعنى، ماجد بن عبد الله آل عبد الجبار.

❖ المسيح عيسى ابن مريم (الحقيقة الكاملة)، علي محمد محمد الصلابي، مركز الكتاب الأكاديمي.

❖ تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم.

❖ قصص الصحابة والصالحين، محمد متولي الشعراوي، المكتبة التوفيقية.

❖ تحليل الشخصيات وفنّ التعامل معها، عبد الكريم الصالح.

❖ موقع الدُّرر السنية بإشراف علوي بن عبد القادر السقاف.

https://dorar.net

❖ موقع آيات، المصحف الإلكتروني، جامعة الملك سعود.

https://quran.ksu.edu.sa

الفهرس

إهداء ٥
المقدِّمة ٧
تعبثون ١٣
مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً! ١٧
وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٢٥
بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ٣٧
رجلٌ رشيد ٤٧
فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ! ٥١
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ٦١
وَشَدَدْنَا مُلْكَه ٧٧
كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ٨١
وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ٩٧
مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي! ١٠٧
كِتَابٌ كَرِيمٌ ١١٩
آل عمران ١٤٥
وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ١٤٩
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ١٦١
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ١٧٥
قائمة المراجع ١٩٣